الفصل الخامس:

كيف أثّر المسلمون والعرب في اللغة الإنجليزية

(التلاقح اللغوي العربي – الإنجليزي)

مناهد التأثير العربيّ يمكن تتبّعها فما يأتي:

١- الترجمة الإغريقية إلى العربية) والترجمة المُعاكسة (من العربيّة إلى اللاتينية)[٣٨][٣٩]:

أمَرَ الإسلام أتباعه بالتزوُّد بالمعرفة والعلم. فقد قال رسول الله ﷺ: «**طلبُ العلم فريضةٌ على كلّ مُسلم ومُسلمة**» رواه ابن ماجة، حديث رقم ٢٢٤. وقال رسول الله ﷺ أيضاً: «**الحكمة ضالّة المؤمن، أنّى وجدها فهو أحقُّ الناس بها**». الترمذي، حديث ٢٦٨٧:٤٩.

كان العربُ والمسلمون مسحورين بالفلاسفة الإغريق وعلمائهم إلى حد أن أقنعهم الرومان عام ٨٣٠ م، بوقف حملاتهم العسكرية ضد القسطنطينية لقاء حصولهم على كتب الإغريق المحفوظة في أنفاق تحت الأرض لمدينة بيزنطة (القسطنطينيّة). وكان الخلفاء العبّاسيون رُعاةً وداعمين ومطوّرين للفنون والفعّاليات العلميّة. قام الأطباء المشهورون في زمانهم: جرجس ابن جبرائيل، يوحنا بن ماسويه، وحُنين بن إسحاق العبادي (في بغداد) وبناءً للطلب الخاصّ للخلفاء المتعاقبين: أبو جعفر المنصور (٧٥٤–٧٧٥م) وهارون الرشيد (٧٨٦–٨٠٩م)، والمأمون (٨١٣–٨٣٣م) بتتابع بالعمل الخطر لترجمة الكُتب الطبية الإغريقية (اليونانية) والمستحصلة من بيزنطة) إلى اللغة العربية. كلُّ مُترجم أُعطي وزن الكتاب المترجم ذهباً.

وأخيراً، أمر الخليفة المأمون بإلحاق مدرسة الترجمة مع جامعة بغداد المُسماة «بيت الحكمة» وعيّن حُنين بن إسحاق العبادي (٨٠٨–٨٧٣م) رئيساً لها والأخير (حُنين) ترجم مؤلفات جالينوس: «في أعمال التشريح» حيث إن المجلّدات الأصليّة الإغريقيّة منها ٩–١٥ (بالتتابع) قد فُقدت تماماً (لذا فالترجمة العربية كانت وسط الحفظ الوحيد للكتب الإغريقية المفقودة): «في المهنة التي يترافعُ بها أفاضلُ الأطباء»: و«في أنّ الطبيب الفاضل فيلسوف». جورج سارتون من جامعة هارفارد تتبّع في كتابه (الهادي لتاريخ العلوم) المطبوع في أمريكا عام ١٩٥٢، في صفحة ٣٧–٣٨) جذور التطور الفكري الغربي إلى الإرث العربي الذي كان (المدّ المتدفق الرائع، وبقي كذلك حتى القرن الرابع عشر الميلادي واحداً من أكبر تيّارات الفكر العصور الوسطى). أيضاً فقد صعد (العرب على أكتاف أسلافهم الإغريق، بالضبط كما صعد الأمريكيّون على أكتاف أسلافهم الأوروبيين. وليس في ذلك أي خطأ). ومن ثمّ ينتقد سارتون بشدة أولئك الذين يدّعون (بسطحية مقولة «إن العرب كانوا مجرد مترجمين لكتابات الإغريق، وكانوا مقلدين مُثابرين»... أنها ليست باطلاً محضاً فقط، ولكن المقولة هذه «جزء ضئيلٌ من الحقيقة» التي إذا قيلت هكذا مجرّدة وحدها فإنها تُصبحُ أسوأ من الكذب ذاته).

إنّ التاريخ هو تراكم المساعي البشرية والخبرات الثمينة وحكم القُدماء، وهو البوصلة التي تستفيد من خبرات الماضي لتوجيه البشروهدايتهم إلى أفضل طُرُق المستقبل. وإذا كان التاريخ الحضاري يُبتدأ في (سومر)، حيث وثّق الأستاذ (صامويل نوح كريمر) من جامعة بنسلفانيا الاكتشافات الـ(٣٩) الأوائل في تاريخ الإنسان المُقيّد بناءً على ألواح

سومر (بلاد الرافدين). «التاريخ يبدأ في سومر»، أول طبعة ١٩٥٦، والطبعة المنقّحة الثالثة عام ١٩٩٤، مطبعة جامعة بنسلفانيا. لذلك فإن كلاً من حضارتي المصريين والفينيقيين قد شُيّدتا على أساس خبرات سومر الحضارية. وكما أن الإغريق (اليونان) أسّسوا حضارتهم على أكتاف المصريين؛ فإن العرب/ المسلمين أسّسوا بناءهم على خبرات الإغريق، بالطريقة نفسها التي أسّس الأوروبيون بناءهم وحضارتهم على خبرات العرب المسلمين. وفي العالم الأكاديمي (التعليمي)، عندما يقوم الطالب الجامعي بدراسة الدكتوراه، فإن عليه أو عليها مراجعة المؤلفات من أقدم العصور حتى الوقت الحاضر لأطروحة الدكتوراه كي يستفيد ويبني على خبرات الآخرين قبل أن يقدم عمله الخلّاق الأصيل. ثم إن طلاب الأمس هم سادة الغد؛ وأحياناً قد يتفوّق الطلاب المثابرون المُجدّون على أساتذتهم المُعلّمين.

لقد وصل العلماء العرب القمة في عصرهم الذهبي الخلّاق طوال القرون ٨–١٢ (كلها) مُتسيّدين على أوروبا في عصورها الوسطى السوداء؛ بل إن الحقيقة أن عصور أوروبا الوسطى تُقابل العصور الذهبية للعالم الإسلامي واللغة العربية كانت لغة التداول الشائعة للعالم آنذاك. إنّ أغلب الكتب العربية في الطب والفلسفة مثل «الكتاب الملكي» لعلي عباس، و«القانون» لابن سينا، و«التصريف» لأبي القاسم، و«الكليّات» لابن رشد، كلها مراجعٌ تُرجمت من اللغة العربية إلى اللاتينية بوساطة قسطنطين الإفريقي (١٠٢٠–١٠٨٧ ميلادي)، جيرارد الكريموني (١١١٤–١١٨٧ ميلادي)، وفرج بن سالم. والأخير كان مُترجماً صقليّاً قام بناءً على طلب الملك شارلس (من نجو) بالمهمة الشاقّة لترجمة (٢٣) جزءاً لكتاب «الحاوي» للرازي في حياة المؤلف كلها.

واستخدمت هذه النُسخ اللاتينية للمراجع العربية في المدارس الطبية في أوروبا لتكون المراجع الوحيدة المتوافرة في الطب من أواخر القرن الحادي عشر وحتى بدايات القرن الثامن عشر[٢١٤٣]. وقد كانت هذه النسخ اللاتينية للمراجع العربية كانت إحدى المصادر الرئيسة (إن لم تكن المصدر الأساس) للنهضة الأوروبية.

وهكذا عبّرت التحويرات اللاتينية للكثير من الكلمات والمصطلحات العربية إلى اللغة اللاتينية بعلم أو دون علم، ولا سيّما في حقول الطب، وعلم الزراعة، والقانون، والحلقات الدينية، واستخدمها الأوروبيون لتكون اللغة اللاتينية موقرة جداً للاستخدام بتحمّس ديني وتاريخيّ كبير كلغة أوروبا الرسمية لاستعادة مجد الرومان والإمبراطورية الرومانية. كما أصبحت الفرنسيّة، عقب الغزو النورماندي لإنجلترا، عنصراً مُكمّلاً للغة الإنجليزية، ولأن فرنسية النورمان آنذاك (سواء في بريطانيا أو في صقلية العربية) كانت لغةً عالمية في التجارة، فإنها قنّاة مباشرة (عبر الفرنسية القديمة) أو غير مباشرة (عبر اللاتينية) لاستعارة الكلمات العربية من أسواق الشرق وتطعيمها وغرسها في اللغة الإنجليزية.

أثّر العرب في اللغة الإنجليزية القديمة للأنجلوساكسون على نحو غير مباشر عبر استخدام الكلمات اللاتينية أثناء الاتصالات التجارية مع الحضارة العربية في إسبانية. لذلك، فالإسهام العربي للغة الإنجليزية كان كالمتطفل المُسالم الذي تبنّاه الأنجلوساكسون والنورمان أنفسهم للحاجات العلمية وللمتطلّبات اللغوية الإنسانية.

وهذا بالمقارنة عكس الإسهامات الرومانية والفرنسية (النورماندية) في الإنجليزية التي جاءت عقب غزوهم العسكري واحتلال الجزر البريطانية من قبل يوليوس قيصر في ٥٥ قبل الميلاد ووليام الفاتح في ١٠٦٦ بعد الميلاد بالتعاقب. وقد يكون من الممتع هنا الاستشهاد بالتحليل المُقارن لعالمة النبات والحدائق الغربية الخبيرة آن بانفورد[٢١٤٤]:

(وبالمقارنة مع الجمود في أوروبا، فإن انفجار فاعلية الفكر في الإسلام الغربي (الأندلس) بين القرن العاشر والثالث عشر كان معجزة. فالنصرانية ما كانت تملك هذا التأثير المُحرّر لعقل القرون الوسطى في أوروبا. والقديس أوغسطين (هو الذي نشر النصرانية في أوروبا) علّم أن المعرفة (التي تشمل طبعاً العلوم كلها) هي انعكاس للفكر الإلهي في الذكاء البشري. وهذا شجّع نوعاً من السلبية غير الفاعلية.

التنوير والتوضيح لا تأتي به إلاّ السلطة الإلهية؛ إمّا مباشرةً أو بتفسير الوسيط وهو الكنيسة. والطبيعة كانت «وعاء فارغاً» كما يسميها شارلز ريفن، وفراغ تملؤه الكنيسة بآرائها. وهي لا تتبنى أو تشجع الآراء الفردية ولا التجارب. وفي العصور الوسطى في أوروبا ما كان تفسير العالم الطبيعي لاستجلاء واستخراج الحقيقة إلا بقدر ملئه بقمامة من الخرافات والعلامات المبهمة والنُّذُر المشؤومة. وعندما تمكن العرب من الاستيعاب والامتصاص الكامل لكل صنوف المعرفة من المراجع الغربية، قاموا من ثمّ بإعادة تصدير هذه المعارف ثانية إلى أوروبا. وعبر الترشيح والتسلُّل العربي، أصبح العلماء الأوروبيون مُطلعين ثانية على جذور ثقافتهم هم الإسلام يزعمن أن مُلكية العلوم هي لكل الشعوب. بل تعلموا أكثر من ذلك أيضاً، مما كان له من بعد ذلك أعمق الأثر في الطريقة التي تصوّروا بها العالم من حولهم.

وبالبطء الذي استوعب الإسلام ذاته معارف قدماء الإغريق، فإن ثمار العلوم العربية نفذت بالترشيح والتقطير إلى الغرب، وغالباً ما عن طريق وسطاء يهود.

وهؤلاء كانوا بُحّاث علوم؛ وقادرين على التواصل بالإغريقية والعربية مع العبرية؛ أي كانوا متنوعي الثقافة قبل اختراع الكلمة نفسها أي تنوع الثقافة التي كانت أصلا صفة علماء العالم الإسلامي. واليهود عاشوا هناك واكتسبوا هذه الميزة منهما، فرجالٌ مثل سبّاتي بن إبراهيم بن جويل (٩١٣–٩٨٢م)، والمعروف أكثر باسم دونولو، كان يهودياً من أوترانتو؛ وعند بلوغه ١٢ عاماً قبض عليه وعلى أسرته المسلمون (الشرقيون) الفاتحون وأخذوه إلى بالرمو (في صقلية). وعندما دُفعت رسوم الفدية من قبل أقرباء الأسرة في إيطالية، كان بن جويل طليق اللسان بالعربية التي تعلّمها من القابضين الشرقيين (المسلمين). ومن ثمّ درس الطب ومارسه في روزانو جنوب إيطالية. ومثل قسطنطين الإفريقي، الذي جاء بعده، فإنه ادعى في كتابه «كتاب الخليفة» (نحو ٩٦٤م) أنه درس علوم الإغريق والعرب واليابليين والهنود. وقام برحلات في إيطالية كلها بحثاً عن معرفة جديدة ونشر في أثنائها معرفة العرب الواسعة أينما يحل. أما قسطنطين الإفريقي (نحو ١٠٢٠–١٠٨٧) فإنه كان مواطناً من قرطاج لبتونس اليوم؛ ومسلماً ناطقاً بالعربية وقد سافر لسنين عديدة في الهند وبلاد فارس. ونحو عام ١٠٦٥، جاء عبر صقلية إلى سالرنو، المدينة الواقعة على الساحل الجنوبي الغربي لإيطالية. وهناك تعلم كلاً من اللاتينية والإغريقية، ودخل إلى دير الرهبان في مونت كاسينو وقضى بقية حياته مترجماً لأعمال الإغريق والعرب في الطب وعلم النبات إلى اللاتينية. ووحده، آثار الانتباه إلى مجموع وثائق المعرفة الإغريقية/ العربية قبل ١٠٠ سنة من الشروع بترجمتها بالكمّ الهائل (أخيراً). وفي أكثر الأوقات، كان لا بد للعلماء الأوروبيين من الاعتماد على هؤلاء الوسطاء لجلب وقطف ثمار العلوم العربية.

كانت العربية لغةً لا تكاد تُخترق الكلام صحيح جزئياً لأنه يعكس محاولة الكنيسة متقصدةً تغريب اللغة العربية عن الأوروبيين)، حتى إستعصى على الرياضي الضليع الكبير روجر بيكون أن يحلّ رموزها. ولم تكن عنده متكلةً ليتعلم بنفسه الإغريقية والعبرية، ولكن طريقته الوحيدة لتعلّم العربية كانت في أن يُعايش سُكّانها في إقليم ينطق بالعربية. والجزء القليل من العلماء المتفوقين (أمثال أديلارد من باث (نحو ١٠٨٠–١١٤٥م) وجيرارد الكريموني (١١١٤–١١٨٧) ذهب إلى إسبانية واستحضر ترجماتهم الخاصة لرسائل البحث العربية لوهذا يوضّح وجود البعثات والمنح الدراسية إلى إسبانية للتعلُّم والنهل من علوم العرب – عندما بدأت أول طلائع علوم الغرب تنهل من الإسلام، حيث إسبانية الموضع المهم للاتصال. وبعد عام ١٠٨٥، عندما انقضّ (السيد) على طليطلة مع (ألفونسو السادس) من ليون، صارت هذه المدينة موضع التقاء مهم بين الشرق والغرب... الذا فإن مجموع المعارف المطبوعة أكان يدور كالدوّامة عبر القارات، وكان خريطة العالم الكبيرة معروضة في غرفة عمليات الحرب العالمية الثانية.

كانت أول عملية شُرع بها في مدينة بيزنطة (القسطنطينية – إستنبول حالياً)، ثم إديسا، ثم جُند يشابور (في فارس)، ثم بغداد (في العراق). وعندما شُيّدت أول مدرسة طبيّة في أوروبا القرون الوسطى عام ٩٨٥ في سالرنو

(المدينة الإيطالية) على أيدي ٤ أطباء – هم يونانيّ (إغريقي)، ويهوديّ، وعربي (شرقي مسلم)، ورجل محليّ من ساليرنو – ومن ثم صارت نواةً للفاعلية الفكرية)[11].

الكلمات الإنجليزية الآتية من الأصول العربية هي نماذج قليلة فقط لهذه المرحلة:

الكيمياء، الغطّاس (الباتروس الطائر البحري)، الكحول، القرآن، القُبّة، الإنبيق، الفصفصة، الجبر، الخوارزم، القلي، الله، المناخ، الملغم، عنبر، أمير، أنجر، النيل (صبغة النيل)، البرقوق، عرب، عربي، لسق، عرق دار – الصناعة، الزرنيخ، أرضي شوكي، الحشاشين، الزائع، أسطرلاب، أطلس، عطر، السّمت، اللازوردي (أزرق سماوي)، لبان جاوه، بورق، بُرنس، حيل، قالب، خليفة، جمل، كافور، قند، قنا (قصب)، غرّاف، قيراط، كراوية، قطّ، صك، زنجفر، صفر، قهوة، قافلة، قطن، قرمزيّ، كمّون، دمشق، دينار، درهم، إكسير، أمير، غربل، غزّيّ (شاش)، غزال، جبل طارق، جبس (جص)، حجّ، حكيم (طبيب مُسلم)، حلوى، حريم، حشيش، زهر (نرد)، حنّاء، جرّة (مرطبان)، ياسمين، جُلّاب (شراب منعش)، كباب، كافر، خمسين (ريح الخمسين)، كحل ليمون، ليلاقي (الليلك، الارجواني)، مخزن، موهير (مُخيّر)، موسمية (ريح موسميّة)، مسجد، مُسلم، مُرّ، نظير (نظير السمت في الفلك)، نطرون (الملح: كربونات الصوديوم المائية)، نظام، نخاع، نارنجة (برتقالة)، قرآن، سفريّ زعفران، سَحْلَب، صافن (وريد الساق)، سنا (مُسهل)، سمسم، شريف، صفّة (أريكة)، إسفاناخ (سباناخ)، سُكر سُلطان، شراب (سيروب)، عتّابي (نسيج حريري ممزوج)، طلق، تعريفه، طوفان (إعصار إستوائي)، وزير، وادي (وادي النهر)، شبّاك (سفينة قرصانية)، سمت الرأس (في الفلك)، صفر (في الرياضيات). وغير ذلك من الكلمات التي جرى استعراضها بالتفصيل في معجم الفردوس.

٢. الوجود الإسلامي في أوروبا[15] (ب)

كان تأثير الإسلام الثقافي والحضاري في أوروبا غالباً تبعاً للفتوحات الإسلامية لإسبانية و لقسطنطينية وصقلية. إن اللغة العربية كانت لغة التداول الشائعة في الأندلس (إسبانية والبرتغال) وفي صقلية، وفي أرجاء العالم الإسلاميّ كله (الخلافة الإسلامية، أو بالمصطلح الغربي المعاصر الإمبراطورية الإسلامية أو الإمبراصورية العربيّة). وهكذا تسرّبت مفردات اللغة العربية وتداخلت بعد ذلك في اللغات الأوروبية؛ وعلى وجه الخصوص صارت اللغة العربية جزءاً لا يتجزأ من النسيج الاجتماعي للغة الإنجليزية (لكونها الممثل وبوتقة انصهار اللغات الأوروبية).

الأندلس: عبر المسلمون من شمال إفريقيا إلى أقصى الطرف الجنوبي لإسبانية في تموز ٧١٠م؛ ومن ثمّ هزما الملك (رودريك) القوطيّ الغربي والإدارة المركزية لمملكته في شبه الجزيرة الآيبيريّة. وفي جنوب غرب فرنسا قهر المسلمون بفتح كلٍّ من ناربون وباميلونا. وفي ٧٣٢م، أغارت حملةٌ تغلغلت إلى المنطقة ما بين بوتيرز (بواتيه) وتورز، لكنها هُزمت أمام شارل مارتل (أي شارل المطرقة)، في معركة اقتنعت المسلمين أنهم وصلوا للحدّ الأقصى لحملاتهم الناجحة. لذا وفّروا طاقاتهم البشرية وركزوا جهودهم لتوحيد وتأمين البلاد؛ ونظّموا إسبانية بوصفها مقاطعة تابعة للإمبراطورية العربية الإسلامية يحكمها حاكم (أمير) تابع لوالي شمال إفريقيا المتمركز في القيروان (تونس)، وهذا بدوره مسؤول مباشرة للخليفة في دمشق حتى سنة ٧٥٦م. عندما انتقلت سيطرة الخلافة الإسلامية من السلالة الأموية وعاصمتها دمشق إلى السلالة العباسيّة التي حوّلت العاصمة إلى بغداد. ثم صارت إسبانية دولة مستقلة بذاتها عندما استطاع أميرٌ شابٌ من سلالة بني أميّة (عبد الرحمن الأول) الهروب إلى إسبانية (الأندلس) ليكون أول الأمراء من بني أميّة في قرطبة، ولكنه أبقى الروابط الثقافية والاقتصادية حيّةً مع باقي العالم الإسلاميّ. حَكَمَ المسلمون الأندلس قرابة ٨ قرون حتى ١٤٩٢، حيث كان سقوط مملكة غرناطة في أيدي الممالك النصرانية.

القسطنطينية: تعرّضت الإمبراطورية الرومانية البيزنطيّة لضغوطٍ مُماثلة نتيجة التوسع الإسلامي. فعندما اندفع العرب المسلمون من جزيرة العرب وحققوا الانتصارات المتتالية على الجيوش البيزنطية، وبسرعة فتحوا مقاطعات سورية ومصر. تعرّضت القسطنطينية لهجوم عام ٦٦٩م، ثم هُدّدت أرضاً وبحراً عدة سنوات حتى عام ٦٨٠م. وقُبيل فتح إسبانيَة حوصرت القسطنطينية بشدّة مدة عام كامل (٧١٦–٧١٧م). واستمرت هذه الضغوط على القسطنطينية بلا توقف حتى سقطت في ١٤٥٣، على يد محمد الفاتح (محمد الثاني). ثم استطاع (سليمان القانوني) ومن بعده من الخلفاء العثمانيين التغلغل في أعماق الجزء الشرقي لأوروبا، حيث حاصروا وهدّدوا فيينّا (النمسة) ٣ مرات بجيش العثمانيين وهو أقوى آلة عسكرية عرفها التاريخ.

كان الأتراك مسلمين وكانوا مسحورين باللغة العربيّة؛ وسيطروا على عنق الزجاجة (الإستراتيجي)، أهم موقع بين مياه البحر الأسود الباردة وبين مياه البحر المتوسط الدافئة. لذا كانوا حلقة وصل فريدة بين الحضارة العربيّة الإسلامية (ولغتها العربيّة) وبين الغرب النصراني، وقد تجسّد هذا التأثير في اللغة الإنجليزية على مستويات عدة، مثل: مصطلحات الرُتب العسكرية، تصاميم الهندسة المعمارية، وفي الأطعمة وفنون الطبخ، إضافةً إلى المنسوجات القماشية (المحمولة والمتاجر فيها عبر أطراف طريق القوافل التجارية المعروفة بـ «طريق الحرير»).

صقلّية لشرقيين (العربية) الإسلامية: كان البيزنطيّون يتوقون لجعل صقلية منصةً لشنّ هجمات للاستيلاء على بلاد العرب المسلمين، وضمّها للإمبراطورية النصرانية تحت حكم روما والكنيسة البابوية الكاثوليكية. وبالمقابل وللدفاع عن شواطئ شمال إفريقيا، قام المسلمون بشنّ هجوم مضاد بجيوش متوحدة من العرب والبربر والإسبان المسلمين (المصطلح عليهم إجمالاً بـ «ساراسينز» أي الشرقيين بالعربية) نزلت في مزاره (ديل فالّو) بدعوة من قائد وجنرال بيزنطيّ تمرّد على الإمبراطور. واستشعر العالم النصراني اللاتينيّ تأثير المسلمين العسكري في صقلية عندما هوجمت مدينة سرقوسة أولاً عام ٦٥٢م؛ ثم سقطت كلٌ من باليرمو، مسينا ثم سرقوسة بأيدي المسلمين في الأعوام ٨٣١، ٨٤٣ و٨٧٨ ميلادية على التوالي.

إسهامات العرب والمسلمين:

قام العرب والمسلمون بجعل اللغة العربية لغة التداول العامة وأدخلوا برنامج إصلاح الأراضي التي كان الناس في أمسّ الحاجة إليها، كما تبنّوا مشروعات تنمية أشجار الحمضيات والنخيل وقصب السكر؛ والأهم من ذلك أن المسلمين طوّروا واتقنوا أنظمة توفير المياه والري (الزراعي). وحكم المسلمون أكثر من ٤ قرون حتى سقطت الجزيرة بأيدي النورمانديين عام ١٠٩١م، نتيجة تحالف بين الكنيسة البابوية الكاثوليكية والنورمانديين (إنجلترا سقطت بأيدي النورمنديين عام ١٠٦٦م). اتبع النورمان سياسة المصالحة مع أهل الجزيرة؛ واستمر تداول اللغة العربية جنباً إلى جنب مع الفرنسية، كما استمر توظيف المهندسين العرب والإداريين (البيروقراطيين) والمعماريين في البلاط الملكي. كانت مظاهر حياة بعض الحكام المتأخرين تبدو منسجمةً مع المسلمين أكثر من النصارى؛ ولا سيّما روجر الثاني (١١٣٠–١١٥٤م) وحفيده فريدريك الثاني من هوهنستاوفن (١٢١٥–١٢٥٠م) حيث كانا يُعرفان بـ «سلطانين المعمّدين في صقلية» (من الكلمة العربية (سلطان)، أي الحاكم)!!! وبالفعل، كلاهما كان يرتدي الثياب العربية، وكان روجر الثاني يمتلك عدداً كبيراً من الحريم.

كان الدافع الرئيس وراء هذه الموجات العملاقة من الفتوحات الإسلامية (كما يراها العرب) هو نشر دعوة الإسلام لغير المسلمين. والإسلام بذاته يقوم على مصدرين رئيسين: القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة من أحاديث وأفعال النبي محمد ﷺ، وكلاهما تنطق باللغة العربية.

لقد رفض العديد من الغربيين أمثال: (مونتيغومري وات) عدَّ المسلمين كباقي المتطفلين الأجانب الذين اقتحموا أوروبا: لأنهم (المسلمين) كانوا يمثلون حضارة ذات إنجازات عظيمة على بقعة واسعة من سطح الأرض، وقد تدفقت منافعها عبر أوروبا الغربية المجاورة أو العالم النصراني اللاتيني. يُصرِّح مونتغمري وات في كتابه الرائع (تأثير الإسلام على أوروبا العصور الوسطى) في الصفحات (١) و(٨٤) (اختلق كُتّاب العصور الوسطى النصارى صورةً «مشوهة» عن الإسلام في عدة جوانب، ولكن بفضل جهود عُلماء القرن الماضي أو نحوه، فقد بدأت الآن تتجلّى في صورةٍ أكثر موضوعيةً في أذهان الغربيين. أما فيما يخص دِيْنَنا الثقافي فإننا نحن الأوروبيين قد أُصبنا ببقعة عمياء وإننا في بعض الأحيان نقلّل من شأن التأثير الإسلامي في تراثنا، وأحياناً أخرى نتقاضى عنه بالكلية إذا أردنا إيجاد علاقات طيبة مع العرب والمسلمين، فإنه يجب علينا أن نعترف بفضلهم علينا اعترافاً كاملاً. إن محاولة إخفاء هذه الحقيقة وإنكارها تُعد مؤشر غرور زائفاً).

(وبسبب ردود الفعل المناهضة للإسلام، فإن أوروبا قد قلّلت من شأن تأثير العرب (المسلمين) فيها، وبالغت في اعتمادها على التراث الإغريقي اليوناني والروماني. لذلك علينا نحن في الوقت الحاضر واجب مهم هو تصحيح هذا التشدّد الزائف مع الاعتراف على نحوٍ كامل بدِيْنَنا للعالم العربي والإسلامي)[15].

إن غزو إسبانية وآسية الوسطى البيزنطية وصقلية كان يعني لبعض الوقت وجوداً إسلامياً على أطراف العالم النصراني اللاتيني، وجوداً كانت له أصداء في باقي أوروبا تجلّى في نقاط الاتصال التجاري المباشر والتبادل الثقافي بين فرنسا وإسبانية. لقد كانت هناك علاقات دبلوماسية بين شارلمان ملك فرنسا وبين هارون الرشيد، الخليفة الإسلامي في بغداد، وكذلك مع منافسه الأمير الأموي في إسبانية. وعبر هذه القنوات وصلت لأوروبا بعض الأخبار والمعرفة بمدى اتّساع رقعة العالم الإسلامي وقدراته. إضافة إلى ذلك فإن التأثير العربي – الإسباني في اللغة الفرنسية قد انتقل إلى اللغة الإنجليزية على نحوٍ غير مباشر عبر الغزو النورماندي لإنجلترا بقيادة ويليم الفاتح. وكذلك فإن مدرسة باليرمو، ومدرسة ساليرنو (جنوب إيطالية) قد أسهمت بدورٍ كبير في نقل العلوم العربية إلى أوروبا.

إن إسهامات العرب الحضارية في أوروبا الغربية كثيرة، فمدينة قرطبة عاصمة الأمير بسكانها مئة ألف (١٠٠٠٠٠ نسمة) جعلت باقي مُدُن أوروبا تبدو كالأقزام أمامها. وكانت مكتبة الأمير تضم أربعمئة ألف (٤٠٠٠٠٠) مجلد، بل ربما كانت تحوي عدداً من الكتب بما يعادل عدد الكتب في مكتبات أوروبا النصرانية كلها مجتمعة، بين رفوفها ما كان مفقوداً ردحاً طويلاً من نفائس حكمة الغرب ومفاهيم رائعة جديدة من الشرق.

اخترع العرب الأرقام العربية واستعملوها في الجزء الغربي من أرض الخلافة (ساحل الشمال الإفريقي والأندلس)، كما طوّروا نظام الأرقام الهندية واستعملوها في الجزء الشرقي من أرض الخلافة (الجزيرة العربية، الهلال الخصيب، فارس والهند).

وبهذا استبدل العرب (بنظام أرقامهم العربية) نظام الأرقام الرومانية المرهق البطيء. إن نظام الأرقام العربية يعتمد على عدد الزوايا التي تمثل كل رقم: فمثلاً الرقم واحد كان يكتب هكذا: 1 بزاوية واحدة (كما يكتب الآن في جُلّ أوروبا وأمريكا اللاتينية)، والرقم اثنان كان يكتب بزاويتين هكذا: Z كما يكتب حرف الزاي Z اللاتيني، والرقم الثلاثة يكتب هكذا: ٤ بثلاث زوايا، والرقم أربعة له أربع زوايا هكذا: 4، والرقم خمسة له خمس زوايا 5، والرقم ستة له ست زوايا هكذا: 6، والرقم سبعة بسبع زوايا هكذا: 7، والرقم ثمانية كمربعين بثماني زوايا هكذا: 8، والرقم تسعة بتسع زوايا ملفوفة من الأسفل هكذا: 9، وكذلك أدخل مفهوم رقم الصفر، ويكتب كدائرة دون زوايا هكذا: 0.

لم يؤد اختراع الصفر لتقدم الرياضيات والعلوم المرتبطة بها فقط، بل عزّز التواصل لحياة الناس اليومية وعملياتهم الإحصائية؛ ومن ثمّ أدى أخيراً لاختراع آلات الحاسوب المبنية على مفهوم «الأرقام الثنائية» (الصفر (٠) والواحد (١) الذي يرمز له «بت» وهي أصغر وحدة ذاكرة مخزّنة بالحاسوب، حيث كل ٨ بت = ١ بايت؛ التي تعادل حرفاً واحداً مثل أ أو ب). وآلات الحاسوب التي أدت أخيراً إلى ثورة في تقنية المعلومات، لا يمكن تخيُّلها البتة دون الاختراع العربي للصفر.

وكان العرب خبراء في زراعة المحاصيل الزراعية ورعايتها مثل الأرزّ، والحمضيات كالبرتقال، والسكر، وعلّموا الأوروبيين التقنيات الأفضل للريّ. كذلك أدخلوا صناعة الورق، واليوصلة، وشراع السفينة المثلث الجديد الذي مكّنهم من تحريك مسار السفينة بعكس اتجاه الريح.

وكان لعلماء العرب دورٌ كبير في مجالات المعرفة الإنسانية، كعلم الفلك، (ولا تزال تستخدم بعض أسماء النجوم التي سمّوها حتى الآن مثل الطاير، ذنب، الدبران)، وعلم الرياضيات، وفي الطب (حتى أصبحت كتابات ابن سينا أكثر المراجع الطبية توثيقاً لفنون المعالجة في أوروبا العصور الوسطى)، وفي الفلسفة (الفلسفة العقلانية لابن رشد). كما كان العرب هم الذين نقلوا الكتب اليونانية (المترجمة إلى العربية)، وهكذا حافظوا على المعارف اليونانية بعد أن فقدت المصادر الأصلية. لقد تفوّق العرب في تطوير وتحسين العلوم اليونانية والهندية والفارسية إضافة إلى إسهاماتهم الأصلية وابتكاراتهم الجديدة. إن ترجمة المصادر العربية إلى اللاتينية شكلت مصدراً مهماً للنهضة الأوروبية. كما شملت إسهامات العرب أيضاً مظاهر الحياة الرفيعة وتهذيب الحياة ورفع المستوى المادي المعيشي.

كانت الحمّامات العامة والحمّامات الخاصة شائعة في العالم الإسلامي. فبينما كان طوب كابي (قصر السلطان العثماني في استنبول – والآن أصبح متحفاً) يحوي ركناً كبيراً للاستحمام والتدليك، بعكس ذلك كان قصر فيرساي في باريس، لا يوجد فيه حمام واحد!! وبينما تمتع الإسبان بالماء الساخن في الحمّامات العامّة تحت ظل حُكم المسلمين، كان أحد المؤرخين الإخباريين يذري الحالة الصحية البدائية عند الأوروبيين في مواضع أخرى، قائلاً: ([الذين] لا ينظفون أنفسهم ولا يغتسلون إلا مرة أو مرتين في السنة، وبماء بارد، وهم لا يغسلون ثيابهم بعد لبسها حتى تتساقط عنهم قطعة قطعة)[٣٠].

وكانت الكنيسة النصرانية في بداية عهدها كثيراً ما تثني الناس عن الاهتمام بالنظافة وذلك (رداً على فسوق الحمّامات الرومانية). وفي القرن السادس بعد الميلاد أمر القديس بندكت بما يأتي: (إلى الذين هم بصحة جيدة ولا سيّما الشباب، سيكون الاستحمام ممنوعاً إلا ما ندر). أما القديس فرنسيس الأسيسي فإنه عَدَّ الجسم غير المغسول علامة نقية للتقوى.

ولهذا فبعد انهيار الامبراطورية الرومانية والانحدار نحو العصور المظلمة، فإن الاهتمام بالصحة العامة قد اختفى فعلياً، وغالباً ما يقال عن أوروبا العصور الوسطى أنها بقيت ألف عام دون استحمام!!! لقد استُبدل الاستحمام باستعمال العطور. كانت إيزابيل ملكة قشتالة تتفاخر أنها اغتسلت مرتين في حياتها: بعد الولادة وقبل الزواج. أما الملكة إليزابيث ملكة إنجلترا، فكانت تغتسل مرتين في السنة، وكانت تستعمل مهفّة (مروحة) يدوية في الجو البارد، لطرد رائحتها الكريهة. وكان ملك فرنسا لويس الرابع عشر يغتسل مرةً واحدة في السنة. لهذا السبب كان ابتكار العطور ذات الأساس الكحولي واستعمالها أولاً في باريس، ولندن، لكي تغطي الرائحة الكريهة. (من الناحية العلمية فإن حاسة الشم عند الإنسان تستطيع تعرّف الروائح القوية فقط من إحدى الرائحتين).

وبينما كان عند المسلمين أنظمةُ ري متقنة ومجارٍ تحت الأرض (للخلاء والمياه القذرة) مع مستوى عالٍ من النظافة الصحية، فعلى العكس من ذلك كانت الفضلات في أوروبا تلقى في الشوارع مباشرةً، أو تمرَّغ في الأنهار التي يشربون منها الماء. إن كلمة مرحاض بالعامية (لُوْ)، قد ذكر أنها مُشتقة من صيحة التحذير بالفرنسية كارديز ليو (تُلفظ كاردي لُوْ، وتعني انتبه ماء!) قبل إفراغ وعاء زبالة الغرفة من الطابق العلوي إلى الشارع التحتاني. وبعد الهلاك الذي حصل بسبب انتشار الطاعون الدَّبْلي، كانت هناك محاولات في بعض مناطق أوروبا لتحسين الأوضاع الصحية والنظافة العامة، ولمنع ممارسة عادة رمي القمامة في الشوارع العامة. لكنّ فشاء مجاري المياه القذرة تحت الأرض لم يحدث في أوروبا حتى بداية القرن التاسع عشر.

كان أكثر الأوروبيين قليلي الاطلاع على صفات العرب والمسلمين وماذا كانوا يعملون. إن «الحياة المرفهة للعرب وما صاحبها من آداب، قد حفّز مخيّلة أوروبا، وليس أقل من ذلك النبوغ الشعري للحال العاطفي (الرومانسي) ولقد ذُكِرَ أن الأندلس كانت أول من أضاء الشوارع في الليل باستعمال مصابيح الزيت (التي تضيء مدة أطول من مصابيح الشموع). وأيضاً عندما تعطّلت الساعة المائية في قرطبة وغرناطة في منتصف القرن العشرين لم يتمكن المهندسون الإسبان من إصلاحها حتى طلبوا الاستعانة رسمياً بالمهندسين المغاربة، وبعد زمن من تعزيز جهود التعاون المشترك استطاعوا معاً إعادة تشغيل الساعة المائية.

ثم إن وليم شكسبير (١٥٦٤–١٦١٦م) كان على اطلاع على الأدب العربي في إسبانية، كما بين هو ذلك في مسرحيته الشهيرة (عُطَيْل) وهو النبيل المغربي داكن السَّحنة. كذلك فإن قصة (روميو وجولييت) العاطفية (عواطف كهذه ودون علاقة جنسية قبل الزواج نادرة في العادات والممارسات البريطانية)، و(تاجر البندقية) (الملم عميق بالممارسات اليهودية) كلُّ هذا عزّز الفكرة القائلة: إن وليم شكسبير قد انحدر نسبُهُ من لموريسكيين (وهم المسلمون العرب الإسبان الذين أجبروا على اعتناق النصرانية الكاثوليكية بعد سقوط غرناطة والأندلس) حيث كان أجداده من العرب المسلمين! هذا هو التفسير الأرجح لهذه المعرفة الواسعة عند شكسبير، حيث صارت معارفه وهويته موضع جدالٍ طويل. فنظرية هربرت لورانس عام ١٧٦٩م، القائلة: إن شكسبير ليس هو مؤلف الأعمال المنسوبة إليه، مبنيّة على افتراض أنه لا يمتلك هذه المعرفة والثقافة التي تجلّت وظهرت في تلك الأعمال. وفي عام ١٨٥٧م، أطلق وليم هنري سميث الفكرة القائلة: إن المؤلف الوحيد من ذلك العصر الذي له القدرة والكفاية لإنتاج مثل هذه الأعمال هو فرانسيس بيكون!!![٦]

٣. وجود الصليبيين والأوروبيين في الشرق (١٠٩٩–١٢٩١م)[١٥، ب، جـ، د]

أصبحت النصرانية ديناً للدولة أيام الإمبراطور الروماني قسطنطين؛ هذا الرجل الذي أعدم ابنه، وطبخ زوجته وهي على قيد الحياة سلقاً بالماء المُغْلى؛ الذي رأى في النصرانية وسيلة عملية لتدعيم سيطرته العسكرية وتوحيد الإمبراطورية الرومانية مترامية الأطراف كثيرة المشكلات. كان اعتناقه النصرانية على أساس حلم رأى فيه صليباً في السماء منقوشاً عليه: «بهذه الراية سوف تقهر الأعداء».

ولكنّه أقرّ بالنصارى على قدم المساواة مع الوثنيين، فاسحاً المجال للدِّين النصراني بالاندماج مع الطقوس الوثنية من ناحية أخرى.

إن الحركة الصليبية التي ظهرت في أواخر القرن الحادي عشر لم تبدأ بوصفها ردَّ فعلٍ نشيطاً ضد الإسلام فقد كان مركز الحركة في شمال فرنسا بعيداً عن الاحتكاك المباشر مع الولايات الإسلامية. كما كانت الكنيسة البابوية الكاثوليكية قلقة لانقسام واقتتال الممالك النصرانية الكاثوليكية فيما بينها، وكانت ترى

أنه من الأولى وقف القتال فيما بينهم، وعليهم توجيه قواهم ضد الملاحدة الكفار (أعداء النصرانية) في الخارج (يقصد بذلك المسلمين)، وضد الهراطقة والخصوم المنشقين عن العقيدة في الداخل (اليهود). فأعلنت أن الواجب على الحارب النصراني مقاتلة أعداء الكنيسة والسلطة البابوية الكاثوليكية[٥٩]. لهذا فإن السلطة البابوية الكاثوليكية قامت بدعم العديد من الجهود السياسية ضد أعداء النصرانيّة، وليست حصرياً ضد المسلمين. ففي عام ١٠٦٦م، حصل وليم الفاتح على مباركة البابا وعلى الراية البابوية عندما قام بغزو إنجلترا.

وفي عام ١٠٥٤م، حدث الانقسام الأكبر في الكنيسة البابوية بالفاتيكان الذي أدى إلى انقسام كامل بين الكنائس الأرثوذكسية البيزنطية والكنائس اللاتينية، مما أجبر الكنيسة البابوية على التحالف مع النورمان لهذا فمي عام ١٠٥٩م، تحالف البابا مع فُرسان النورمانديين جنوب إيطالية: الذين كانوا يحاربون البيزنطيين (أي ضد النصارى الأرثوزوكس). كذلك استخدمت الحملات الصليبية ضد الهراطقة (المنشقين عن العقيدة النصرانية) في دخل العالم النصراني. وتجدر الإشارة هنا إلى الحملة الصليبية عام ١٢٠٩م، ضد الـ (كاثارز) أو الـ (ألبيجينسيانز)، (أي الكاثاريين والألبيجنسيين).

لكن الحركة الصليبية ضد الإسلام بدأت عندما قام البابا بتأييد جهود النورمنديين في جنوب إيطالية لكي يستعيدوا صقلية. ومعركة سيرامي في صقلية عام ١٠٦٣م، بقيادة كاوفريدوس مالاتيرّا مع الحملة البحرية المشتركة التي أعدتها مُدن: بيزا، وجنوه، وروما، وأملفي ضد تونس، يمكن عدُّها كلها حملات صليبية.

وكابدت الإمبراطورية البيزنطية في القسطنطينية هزيمةً تاريخيةً فادحةً ومنكرة في موقعة ملاذكرد (الزهوة) عام (٤٦٣ هـ-١٠٧١م)، أمام المسلمين السلاجقة الأتراك، حيث خرج "أرمانوس" قيصر الروم مزهواً بجيوشه الجرّارة سنة (٤٦٣هـ-١٠٧٠م) لمواجهة غزو السلاجقة الإسلامي لممتلكاته من أجل تطويق الجيش السلجوقي، ثم القضاء على الخلافة العباسية في بغداد، فاستولى في طريقه على حلب من دون قتال، بعد اتفاق وحيانة حاكمها التابع للخليفة الفاطمي العُبيدي في مصر. فأرسل "ألب ارسلان" ابنه "ملكشاه" على رأس قوة من جيشه: لاسترداد حلب من الروم، وتأمين الحدود الشمالية لبلاد الشام؛ فنجح في مهمته، واستولى على حلب، وأصبحت تابعة للسلاجقة، ثم ضمّ القدس أيضاً، وأجزاء من بلاد الشام. لم يجد قيصر الروم بدّاً من الهجوم المباشر على جيش ألب أرسلان بعد أن فشلت خطته في تطويقه؛ فخرج بجيوشه الرومانية الجرارة البالغ تعدادها ٢٠٠ ألف جندي نصراني (تضمّ أخلاطًا من الروس والبلغاريين واليونانيين والفرنسيين) إلى المنطقة التي يعسكر فيها جيش ألب أرسلان في "ملاذكرد"، وتعداده ١٥-٢٠ ألف فارس مسلم، وهم بالمقارنة أقلّ عدداً وعُدّةً وسلاحاً. فقال السلطان: "أنا التقيهم، فإنّ سلمتُ فبنعمة الله، وإن قُتلتُ فملكشاه وليّ عهدي".

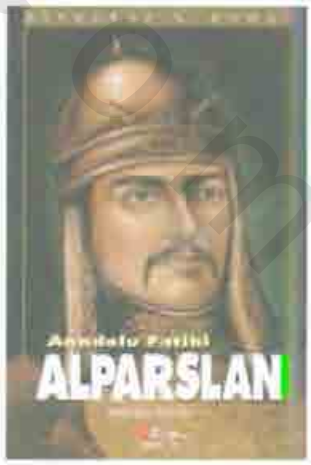

أرسل ألب أرسلان طلائعه فاصطدمت وكسرت العدو وأسرت مُقدّمهم في نصر خاطف، وطلب السلطان الهدنة (لحفظ ماء الوجه)، لكن القيصر أرمانوس رفض ذلك؛ فأيقن ألب أرسلان ألاّ مفرّ له من القتال: فعمد إلى جنوده يشعل في نفوسهم رُوح الجهاد والصبر عند اللقاء وطلب الشهادة والجنة، ووقف الإمام "أبو نصر محمد بن عبد الملك البخاري" يشدّ من أزر السلطان، ويقول له: "إنك تقاتل عن دين وعد الله بنصره، وإظهاره على سائر الأديان، وأرجو أن يكون الله تعالى قد كتب باسمك هذا الفتح. وألقهم يوم الجمعة والساعة يكون الخطباء على المنابر يدعون للمجاهدين". وحين دنت ساعة اللقاء صلّى بهم الإمام أبو نصر البخاري، وبكى السلطان؛ فبكى الناس لبكائه، ودعا، وأمّنوا (أي قالوا آمين)، ورمى

القوس وسلّ السيف، وعقدَ بيده ذنَبَ فرسه (إيذاناً بالقتال المتواصل حتى الموت)، وفعل الجند مثله. ثم لبس السلطان البياض وتحنّط وقال: "إن قُتلت فهذا كفني"، ثم حمل، فلمّا لاطخ العدو، ترجّل وعفّر وجهه بالتراب، وأكثرَ التضرّع، ثم ركب، وحمل المسلمون على أعدائهم حملة صادقة على قلب رجل واحد، فقتلوا في الروم كيف شاؤوا، ونزل النصر، وتطايرت الرؤوس، وما هي إلا ساعة من نهار حتى انكشف غبار المعركة عن جثث الروم تملأ ساحة القتال، ووقع قيصر الروم "أرمانوس" أسيرًا في أيديهم، وحلّت الهزيمة النكراء بهذا الجيش الجبّار بإذن الله في (ذي القعدة ٤٦٣هـ الموافق آب/أغسطس ١٠٧١م).

وأحضرَ بين يدي السلطان فضرَبَه بالمقرعة، وقال: ألم أسألك الهدنة؟ قال: لا توبّخ، وافعل ما تريد. قال: ما كنت تفعل لو أسرتني؟ قال: أفعل القبيح. قال: فما تظنّ بي؟ قال: تقتلني أو تشهّرني في بلادك، والثالثة بعيدة، أن تعفو، وتأخذ الأموال. قال: ما عزمت على غيرها. فعقدَ قيصر نفسه وجنده بفدية كبيرة قدرها مليون ونصف المليون من الدنانير، وعقدوا صلحًا مع السلاجقة مدته ٥٠ عامًا، وتعهدوا بدفع جزية سنوية طوال هذه المدة، واعترفوا بسيطرة المسلمين السلاجقة على المناطق التي فتحوها من بلاد الروم، وتعهدوا بعدم الاعتداء على ممتلكات دولة السلاجقة. ثم أُطلق سراح قيصر الروم، وبعث له السلطان عشرة آلاف دينار ليتجهز بها، وأطلق له عدة بطارقة وشيّعه. لكن الروم خلعوه وعيّنوا إمبراطوراً آخراً بدلاً منه في القسطنطينية. كان من نتائج هذا النصر العظيم أن تغيرت صورة الحياة والحضارة في هذه المنطقة؛ حيث أشرقت عليها شمس الإسلام، ودخل سكانها في دين الإسلام، وتعلموا مبادئه وشرائعه. وما كان للسلطان ألب أرسلان أن يحقق كل هذه الإنجازات إلا بعد توطيد جبهته الداخلية بجهود وزيره العظيم نظام الملك، الذي كان وزيرًا بارعاً وسياسياً ذكياً، وداعيًا للإسلام وعلومه، وهو الذي أنشأ المدارس المعروفة باسمه "المدارس النظامية"، وأجرى لها الرواتب، وجذب إليها كبار الفقهاء والمحدثين، وفي مقدمتهم حجة الإسلام "محمد أبو الحامد الغزالي". (سير أعلام النبلاء للذهبي تحت اسم عبد الله بن أحمد بن جعفر بن المعتضد العباسي)

ومع استمرار التهديد الإسلامي السلجوقي للقسطنطينية، استغاث الإمبراطور الجديد طالباً "النجدة والدعم العسكري، وادّعى محذّراً أنه إذا سقطت القسطنطينية فسوف تنفتح بوابة أوروبا الخلفية، وقريبًا يصبح وسط أوروبا أرضاً للمعركة. وفي القرن الحادي عشر كانت هناك بعض حوادث السلب والنهب التي يتعرض لها بعض السياح والمسافرين (في أثناء زيارتهم الأراضي المقدّسة)، كأن تُسرق بغالهم أو استغفالهم فيقعوا ضحايا لألعاب قذرة. وأخبار حوادث كهذه كانت تتسرّب إلى مسامع أوروبا، ومن بعد سردها من فم لآخر تصبح للقصص مبالغات كثيرة. لكن تصوّر بالمقابل ماذا سيحدث لو أن سفينة تحمل ركاباً مسلمين سياحاً تحط بأرض باريس أو لندن في القرن الحادي عشر؟!(٥)

كان البابا أوربان الثاني حريصاً على رأب التصدّع والانفصال الديني وتحسين العلاقة بين الكنيسة الغربية (روما) والكنيسة الشرقية (القسطنطينية) فوافق على وجهة النظر البيزنطية القائلة إن مدينتهم القسطنطينية هي حقيقةً خط الدفاع الأول لأوروبا. كذلك فقد كانت تحدث مذابح دامية على نحو مستمر تقوم به عصابات إرهابية مسلّحة داخل أوروبا، فكان البابا يَعدُّ أن قتل غير النصارى باسم الربّ لا يُعدُّ ذنباً، لذلك فلا بد من تنفيس الطاقات العدوانية وتصديرها إلى خارج أوروبا.

لقد كان خطاب البابا أوربان الثاني الذي ألقاه في كليرمونت عام ١٠٩٥ م، داعياً فرسان أوروبا كي يتحدوا ويتقدموا زاحفين على القدس لإنقاذ وتحرير الأرض المقدسة من الكفرة المسلمين (!). كمن خطابه هذا دافعاً لشن أولى الحملات الصليبية (من مجموع ثماني حملات في مئتي عام التي تلت)؛ لقد استطاع أن يأسر خيال العامّة من الرجال بفكرة استعادة القدس والذهاب إلى الحج لزيارة الأماكن المقدسة في فلسطين. كانت

الاستجابة عظيمةً لنداء البابا في كليرمونت، فبدلاً من توقع حضور عشرين ألفاً إلى ثلاثين ألفاً من الجنود المحترفين، فقد حضر ما يقارب مئة الألف من القرويين تحت إمرة بيتر هرمت: (أي بُطرس الناسك – من العربية حُرمة أي المُحرم)، وبدؤوا المسيرة وحدهم (الحملة الصليبية الشعبية)، ولما وصل هذا الحشد من الناس إلى هنغاريا (المَجَر)، كانوا في مجاعة شديدة، فبدؤوا السَّلب والنهب وهم يتقدمون. وعندما وصلوا القسطنطينية، قام الإمبراطور بنقل هؤلاء القرويين في الحال ونقلهم إلى الأناضول حيث كان جيش الأتراك المسلمين في انتظارهم فهجموا عليهم سريعاً وأوقعوا فيهم قتلاً وذبحاً.

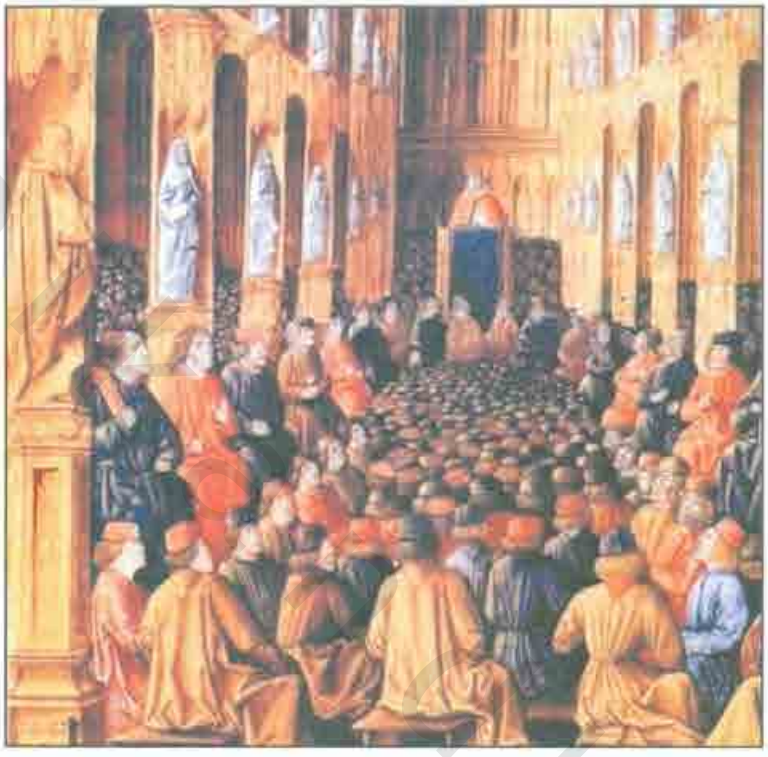

البابا أوربان الثاني في مجمع كليرمونت الكنسي عام ١٠٩٥م،
يلقي خطبة حماسية أثبت العواطف لاسترجاع الأرض المُقدسة

ويقال: إنه عند وصول هذه الحملة الصليبية الأولى إلى القسطنطينية عام ١٠٩٧م، فوجئ الإمبراطور البيزنطي أليكسيوس الذي كان يأمل مجيء قوة محدودة العدد من الجنود المُحترفين لتحقيق هدفه الأساسي: وهو استعادة الأناضول، وتنبّه إلى خطر هذا الحشد الهائل من الجيوش الغربية المتجهة للتجمُّع في القسطنطينية (بتعداد يفوق مئة الألف وهو حشد تصعب إدارته وإمداده بالمؤن). فلا حاجة للقول إنه أغلق بوابات المدينة خشيةً من أنّ هذه الغوغاء ربما تغتنم هذه الفرصة للانقضاض والاستيلاء على عرشه. وفي ربيع السنة التي تلت (١٠٩٨م)، بدأت الحملة بالانطلاق تحت القيادة الشكلية (بالاسم فقط) للبيزنطيين. والسنتان اللاحقتان (١٠٩٩–١١٠٠م) كانتا دمويتين. فقد كان التقدم صعباً ومنهكاً وقاسياً في أراضٍ وعرة وأجواء غريبة لم يعتد عليها فرسان ألمانية وفرنسا وإنجلترا، وهلك نحو ثلثي الرجال في أثناء الطريق نتيجة الحر الشديد ونتيجة الاشتباكات. واكتسبت فكرة الحملة الصليبية زخماً متزايداً مع تقدم الجيوش نحو الجنوب باتجاه القدس (أورشليم المقدسة). ثم كان الاستيلاء على مدينة القدس وتدمير سكانها بمذابح دموية عام ١٠٩٩م، وإقامة مملكة أورشليم (القدس) (وإخضاع دُويلات إديسا، أنطاكية، وطرابلس) كانت هذه الخطوة إكليل الغار والتاج الذي توّج تحقيق أهداف الحملة الصليبية.

سجّل المؤرخ الإخباري ريموند (من آكويليرز) مشهداً لزُمرة من الصليبيين وهم يقومون بمجزرة ذبح المسلمين واليهود: (السُكان المدنيين المسالمين) في القدس عام ١٠٩٩م كما يأتي: (تُشاهد أشياءً رائعة. فعددٌ من المسلمين قُطّعت أعناقهم... وآخرون رُموا بالسهام (قتلاً)، أو أُجبروا على القفز من الأبراج؛ وآخرون عُذّبوا لأيام عديدة، ثم أُحرقوا بالنار في الشوارع تُشاهد أكوامٌ من الرؤوس والأيدي والأقدام. يسير الراكب بين جثث الرجال وجثث الخيل في كُلّ مكان تقريباً. وفي معبد سُليمان، كانت الخيل تخوض بالدماء إلى رُكبها، لا بل إلى لجامها. لقد كان قضاءً إلهياً عادلاً وراثعاً أن يمتلئ هذا المكان بدماء الكفرة)!!! أما البابا جريجوري السابع فقد صرح بما يأتي: (ملعونٌ ذلك الرجلُ الذي يُمسك سيفه ممتنعاً عن إراقة الدّماء).

في الثمانين عاماً اللاحقة للحملة الصليبية الأولى، قُسّمت الأرض المقدّسة إلى مُقاطعات صليبية (بالرغم من استمرار المناوشات بينهم أيضاً). وكان المؤرّخون يقسّمون الحوادث إلى عدة مراحل، كالحملة الصليبية الأولى، والحملة الصليبية الثانية، والحملة الصليبية الثالثة... والواقع أنها كانت في الغالب عملية مستمرة. فموجات الصليبيين كانت تجتاح المنطقة على مدى أكثر من مئتي عام؛ كان بعضهم مدفوعاً بعاطفة التقوى، وآخرون أُرسلوا كعقوبة تكفيراً عن الذنوب. ولكن الأغلبية جاءت جزءاً من عمليات عامّة لسلب الأراضي ونهب المُمتلكات التي أطلقت زمامها هذه الحروب. ومن وراء المثالية كانت تكمن أسبابٌ واقعية ودوافع اقتصادية؛ وهي هؤلاء السياح الوافدون بالآلاف كل عام إلى خارج أوروبا، بما ينعش الأعمال التجارية التي تدرّ الربح الكبير والمردود السريع.

ولم يكن هذا النجاح ممكناً إلاّ بسبب تفرُّق المسلمين في تلك المنطقة، حيث كان عددٌ من قادتها يتناحرون فيما بينهم. وعندما جاء أتابيك من الموصل قهر العديد من منافسيه وازدادت قوّته، واستطاع استعادة إديسا في ١١٤٤م. ثم ظهر صلاح الدين الأيوبي على مسرح الأحداث عام ١١٦٩م، فوحّد مصر وسورية تحت حكمه. ومن ثم أوقع عدة هزائم بالنصارى، توّجها باستعادة القدس من النصارى عام ١١٨٧م، بعد انتصاره في حطين[١٠٠].

وفي نحو عام ١١٩٢م، (بعد هزيمة الصليبيين في معركة حطين عام ١١٨٧م)، يُقال إن صلاح الدين نفسه مع طبيبه الخاص عبد اللطيف البغدادي قد تدخّلا شخصياً وطبقا معرفتهما العملية في الطب العربي لعلاج الجراح الخطرة للملك ريتشارد قلب الأسد (قائد الحملة الصليبية الثالثة، وملك إنجلترا). فربما هذه العلاقة النبيلة لا الهزيمة هي التي حدّت بريتشارد لمعاقدة السلام وخروج الصليبيين؛ ولإعطاء وجه حسن لسوء طالعهم. فقد عُقدت هدنة تعطي الغربيين حق السياحة للمدينة المقدسة (القدس).

امتدّ هذا التواصل الأنجلو – عربي بين الملك الإنجليزي والسلطان العربي لما وراء المنازلة العسكرية، فمثلاً الملك ريتشارد ترجّى السلطان صلاح الدين عن طريق رسوله الشخصي، وهو فارس صليبي فقد أخته العزيز (أسرها المسلمون وكانت تُسمّى ماري ثم صار اسمها ثريا) كي تعود الأخت مع أخيها معاً، أو يؤخذ أسيراً معها لحبّه لها. فحدثت هذه المراسلة الجديرة بالذكر:

بعث ريتشارد قلب الأسد برسالة إلى صلاح الدين الأيوبي، جاء فيها:

(من ريكاردوس قلب الأسد ملك الإنجليز إلى صلاح الدين الأيوبي ملك العرب... أيُها المَولى... حامل خطابي هذا يطل باسل سنديد، لاقى أبطالكم في ميادين الوغى، وأبلى في القتال البلاء الحسن، وقد وقعت أخته أسيرة وكانت تدعى (ماري) وصار اسمها (ثريا).

وإن الملك الإنجليز رجاءً يتقدم به إلى ملك العرب وهو: إما أن تعيدوا إلى الأخ أخته، وإما أن تحتفظوا به أسيراً معها، ولا تفرقوا بينهما ولا تحكموا على عصفور أن يعيش بعيداً عن اليفه.

وفي حين أنا أنتظار قراركم بهذا الشأن، أذكّركم بقول الخليفة عمر بن الخطاب – وقد سمعته من صديقي الأمير حارث – وهو: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟».

فردّ صلاح الدين على رسالة ريتشارد:

(من السلطان صلاح الدين الأيوبي إلى ريكاردوس ملك الإنجليز...

أيها الملك: صافحت البطل الباسل الذي أوفدتموه رسولاً إليّ، فليحمل إليكم المصافحة ممن عرف قدركم في ميادين الكفاح.

وإني لأحب أن تعلموا أنني لم أحتفظ بالأخ أسيراً مع أخته؛ لأننا لا نبقي في بيوتنا سوى أسلاب المعارك. لقد أعدنا الأخ لأخته. وإذا ما عمل صلاح الدين بقول عمر بن الخطاب، فليعمل ريكاردوس بقول عندكم: «أعطوا ما لقيصر لقيصر، وما لله لله». فردّ أيُّها الملك الأرض التي اغتصبتها إلى أصحابها، عملاً بوصية السيد المسيح عليه السلام).

ومن الجدير بالذكر أن الملك ريتشارد تعرّض إلى كمين وهوجم من قبل أعدائه وهو في طريق عودته لإنجلترا، حيث قبضوا عليه واحتجزوه رهينةً في السجن لقاء فدية. لقد ذكر المؤرخ (وليام فورستشن) في كتاب بعنوان: (تبدو فكرة جيدة: تجميع الإخفاقات التاريخية العظيمة) ما يأتي:

(يعتقد المرء أن الإنجليز ربما كان عليهم تقديم الشكر للخاطفين، وذلك لأن الجزء المهمل من أسطورة ريتشارد، هو أنه ومنذ اعتلائه العرش، قلّما وضع قدمه في إنجلترا، بل كان يراها جُعبةً (كيس) مال لا نهاية له، ومصدراً لتجهيزه بالأجساد البشرية لتحقيق أغراضه النبيلة! ولهذا السبب فإنه هو الذي أفلس البلد، ثم إنّ دفع فدية قد أدّى لتفاقم المشكلات المالية.

ومن سُخرية القدر أن أخاه (جون) تحمّل المسؤولية والتبعات كافة وأرهق كاهل البلاد كي يُطلق سراح أخيه من السجن. عاد ريتشارد إلى الوطن، ودفع البلاد إلى تحمل ديونٍ أثقل. فقد جهز جيشاً جديداً ثم توجّه به لقتال حليفه السابق ملك فرنسا، ولكنه قُتل هناك فور وصوله. ومن ثمّ قضى (جون) البقية من زمن حكمه يحاول إصلاح الضرر ولكنّ سُمعته لم تزدد إلا سوءاً).

وهكذا فإن الحملة الصليبية الثالثة (١١٨٦–١١٩١م)، قد عدّت ناجحةً جزئياً في بدايتها، حيث استعادت عكّا عام ١١٩١م، بعد حصار دام سنتين، ثم توقفت بعد ذلك ولم تحرز أي تقدم يذكر بعد نجاح المسلمين في استعادة القدس من الصليبيين.

بعد هذا الإحباط، تغيّر هدف الحملة الصليبية الرابعة ليصبح استيلاءً على القسطنطينية عام ١٢٠٤م(!). فإن البابا (إنوسنت الثالث) هو الذي أرسل الصليبيين إلى القسطنطينية لإجبار الكنيسة الإغريقية (اليونانية) الشرقية البيزنطية هناك على الخضوع إلى سلطته البابوية في روما. إن السبب الأصلي المعلن من وراء إرسال الصليبيين إلى القسطنطينية لحمايتها من الأتراك المسلمين قد تمّ تجاهله تماماً، بدلاً من ذلك، وتحت ذريعة إعادة تنصيب أحد المخلوعين من منصبه، من أقرباء الإمبراطور البيزنطي، قام الصليبيون بشنّ هجوم مفاجئ على القسطنطينية، فاقتحموها وأشعلوا النيران فيها، وقتلوا عدداً لا يستهان به من سكانها، ونهبوها على بكرة أبيها ولم يبقوا شيئاً.

وأثناء مرورهم، قاموا بتنصيب ألعوبة (دمية) لهم على العرش. وهكذا تقاطر جنود المسيح على القسطنطينية اختصاباً وسلباً ونهباً وحرقاً للمدينة. واستناداً إلى مؤرخ الأحداث (جيفري فلهاردوين): (فإنه منذ خلق العالم، لم تؤخذ من مدينةٍ قط مثل هذه الغنائم العظيمة). وكانت إجابة البابا لإمبراطور القسطنطينية ما يأتي:

(نحن نعتقد أنّ الإغريق قد عوقبوا بقضاء الربّ العادل على أيدي الصليبيين: هؤلاء الإغريق الذين جاهدوا لتمزيق رداء المسيح الذي لا يتمزّق... أولئك الذين لم يُرافقوا نوحاً ولم يركبوا سفينةً قد أهلكهم الطوفان بالحق، وهؤلاء الذين أصابتهم الفاقة والمجاعة بحقّ: الذين رفضوا استقبال (بطرس) المبارك أمير الحواريين).

وكتب (نايسيتاس كونياتس) مؤرخ الأحداث البيزنطي ما يأتي:

(حتى العرب الشرقيون (المسلمون) رحماء وذوو عطف بالمقارنة مع هؤلاء الرجال الذين يحملون الصليب على أكتافهم). وفي نهاية الأمر، استعاد الحُكم البيزنطي سُلطته على العرش، ولكن كظلٍّ شاحب لما كان من سلطانهم ومجدهم السابق. إن السقوط الحتمي لإمبراطورية يقتفى أثرها ونسبها إلى القياصرة يمكن اعتبار بداية سقوطه من هذه اللحظة[ص].

استمر الاهتمام السياسي متركّزاً على القدس، وقد مكّنت النزاعات بين خلفاء صلاح الدين، مكّنت هذه الفجوة من احتلالها ثانيةً من عام ١٢٢٩م، إلى عام ١٢٤٤م، ولكن هذه المرة كانت بمعاهدة.

في نحو سنة ١٢٥٠م، انتقلت السلطة في مصر وسورية من الأيوبيين (سلالة صلاح الدين الحاكمة) إلى المماليك، وأدت الضغوط التي كانت تمارس على الصليبيين في ذلك الحين إلى انحسار نفوذهم تدريجياً عن المناطق التي كانت تحت سيطرتهم.

طالما كان المسلمون منقسمين، كان الأوروبيون بأمان نسبياً ويحرّضون جانباً ضد الآخر. ولكن صعود المماليك إلى سدة الحكم في مصر وضع الدولة اللاتينية (أي فلسطين الصليبيين النصرانية) داخل فكّي كماشة كبيرة محاطة بجيران أعداء ومن خلف ظهورها البحر. وكانت أوضاع فلسطين النصرانية قاتمة، ولكن ظهور جيش المغول عام ١٢٦٠م، بقيادة هولاكو، إيلخان بلاد فارس أعطاها شيئاً من الراحة. اتفق المسلمون على هدنة مع النصارى ليتفرغوا لقتال الغُزاة المغول، الذين دمّروا بغداد العاصمة المركزية لخلافة العالم الإسلامي. ولكن باعتبارات عديدة فإن هذا قد استبدل خطراً بآخر (فيما يخص الصليبيين): لأنّ قوات المغول التي لا تحصى (المسمّون أيضاً بالتتار) احتلوا، ودمّروا أجزاء من الأرض المقدسة، وقتلوا العديد من فرسان الهيكل والاسبتاريه هناك؛ لم يكن المغول أصدقاء للنصارى وفي بعض الأحيان هدّدوا المملكة اللاتينية (بقدر ما هدّدها المماليك).

بالرغم من هذا الخطر الداهم على العالم النصراني لم يُعمل الكثير لدرئه، وترك الأمر لجيوش المسلمين لإيقاف الزحف المغولي[ل].

في تموز عام ١٢٦٠م، طلب قائد المماليك قطز من حُكام المملكة اللاتينية السماح له بمعبر آمن له ولجيشه عبر أراضيهم (المحتلة)، وطلباً للتحالف المشترك لدحر الخطر المشترك. وافق النصارى على طلبه الأول ورفضوه الثاني. وفي ٣ أيلول ١٢٦٠م، في عين جالوت جنوب الناصرة، قهرت الجيوش الإسلامية قوات المغول. لقد كان انتصاراً عظيماً والذي رفع معنويات المماليك وثقتهم على نحوٍ هائل. في جيلٍ واحد، أشرفت هذه القوة ذاتها على إسقاط المملكة اللاتينية بكاملها. كان الهبوط تدريجياً، حيث تساقطت الحصون والمقاطعات البعيدة عن الساحل الواحدة تلو الأخرى أمام قوات المسلمين. وكان هناك أوقاتٌ للراحة في أثناء هدنة الأمير إدوارد الإنجليزي عام ١٢٧١م، وهدنات عامي ١٢٨١م و١٢٨٢م، لكنّ هذه الهدنة الأخيرة التي عقدها رئيس فرسان الهيكل (وليم من بيوجه) مع قائد المماليك قلاوون مدة عشر سنوات سلام، قد نُقضت عام ١٢٨٥. وبعد ذلك بقليل سقطت الحصون الساحلية واحداً بعد الآخر بالرغم من تحصيناتها الأرضية:

سقطت اللاذقية في ذلك العام، وكذلك المرقاب، حصن الفرسان الإسبتارية. وبعد ٤ سنوات (عام ١٢٨٩)، أرسل قلاوون جيشه لمهاجمة طرابلس التي سقطت في نيسان ١٢٨٩م. وكان واضحاً أن عكّا، المركز العصبي لقوات الصليبية، سيكون الهدف الآتي لقدرة قوات المماليك المنصورة[٢].

واستثيرت مملكة العالم الغربي النصراني في وقت المحنة هذه، وفي عام ١٢٩٠م، وصلت عدة سفن مع تعزيزات ومؤن إلى عكّا. لكن القادمين الجدد عديمي الخبرة، الذين رُحّب بهم في البداية بوصفهم مُنقذين، أثبتوا أنهم هم الذين دفعوا هذه المدينة الكبيرة إلى كارثة. فلقد حرَّضوا على الشغب وقاموا بقتل كثير من المسلمين. وحسب مؤرخ لا يعرف اسمه من فرسان هيكل صور: (الذين قُتلوا لم يكونوا مقاتلين بل قرويين بُسطاء اعتادوا على جلب منتوجاتهم لبيعها في المدينة).

كان ذلك كل ما يحتاجه قلاوون ذريعة. فأرسل رسله مطالباً بتكفير هذه الجريمة، وهدَّد بتدمير المدينة إذا لم تُستجب طلباته. وقد رُفضت مطالب قلاوون، وبالرغم من موت قلاوون، فإن ابنه (الأشرف خليل) كان متحمساً وشجاعاً كأبيه؛ في نيسان ١٢٩١م، زحف جيش المماليك على المدينة. وبسقوط عكّا، سقطت الحصون الباقية في صيدا، وطرطوسة، وعاتليت واحداً بعد الآخر: صيدا أُخليت في تموز، طرطوسه وعاتليت بعد شهر واحد. وحاول فرسان الهيكل التخطيط لغزو ركن صغير في الشرق، جزيرة رواد عديمة الماء، التي تأملوا منها شنّ هجمات معاكسة ضد المماليك. ولكنّ جزيرة رُواد سقطت نهائياً في ١٣٠٣م، والناجون من حاميتها العسكرية أخذوا أسرى بالقيود إلى القاهرة، حيث واجهوا موتهم أمام الجموع المحتفلة، ورموا بسهام رماة المماليك النبّالة. ومعهم مات حلم أرض النصارى المقدّسة، ومعه مات المبرّر لوجود منظمة فرسان الهيكل[٣].

بعد انقضاض المماليك على عكا بالهجوم الكاسح عام ١٢٩١م، سقطت المدن الساحلية الباقية في غضون شهر أو شهرين. وباءت محاولة الصليبيين استعادة القدس بالإخفاق الذريع[٤]. لهذا فإن الاحتلال الصليبي لم يُقدر له الاستمرار؛ لأن الإسلام فعل فعله ووحّد المسلمين الذين طردوا أخيراً هؤلاء النصارى من إقطاعياتهم (من الأراضي التي اقتطعوها لأنفسهم) في الأراضي المقدسة.

وفي نحو مئتي عام من الحروب الصليبية قتل الصليبيون الآلاف إن لم يكن الملايين من الناس، ودمّروا الكثير مثل الذي دمّرته الكنيسة في بداية العصور المُظلمة، وأحرقوا أي كتاب وجدوه. لقد أحرقوا آلاف المجلدات من النصوص الدينية المقدّسة وكتب العلم ومصادر المعرفة الإنسانية النفيسة. وبدلاً من أن يكسبوا متنصّرين جدداً إلى الكنيسة الرومانية الكاثوليكية، فقد تركوا وراءهم مشاعر الكراهية والعداء المُرّ، الذي يقيت آثاره إلى اليوم. ولما خسرت الحملات الصليبية أمام المسلمين وضد الكنيسة الإغريقية (اليونانية) الأرثوذوكسية (في القسطنطينية) وضد اليهود والكفرة الملاحدة (كما يسمّون أعداءهم) أخفقت الكنيسة أيضاً في تحقيق وحدة أوروبية دائمة تحت راية النصرانية. قامت الكنيسة بالضرب بيد من حديد كل من يهدد نفوذها ولا يتصاغ لأمرها لمدّ نفوذها داخل أوطانها وما يحيط بها.

وإحدى أبشع الحملات الصليبية المروّعة تلك المسماة (حملة الأطفال الصليبية)، حيث كانت مُدن أوروبا القرون الوسطى تعج بالكثير من الأطفال اليتامى والمتروكين (المتخلى عنهم)، وكانوا على اقتناع أن ما أخفق فيه الكبار من حملات صليبية سينجح فيه الأطفال بالتأكيد؛ لأنّ الرب سوف يحميهم حتى يصلوا إلى المدينة المقدّسة. لقد خرج الآلاف من الأطفال وتوجّهوا نحو الساحل، وكانوا يتسوّلون ويسرقون وهم في طريقهم لكي يبقوا على قيد الحياة. حاولت الكنيسة القيام ببعض الجهود لكي تثني الأطفال عن عزمهم، ولكن لا شيء كان يمكن أن يحرف مسارهم وحماستهم البريئة. ولما وصلوا الموانئ على طول الساحل الإيطالي، فاوض قادتهم جمعية مالكي

حملة الأطفال الصليبية

السُفُن على أن يقوموا بنقلهم إلى الأرض المقدسة مقابل الحصول على بركات الربّ. تم الاتفاق وبدأ الأطفال في الصعود على ظهر السُفُن. وبعد ذلك وباستعراض رأسمالي خبيث وخدع اجتماعية، أبحروا بكلّ هؤلاء الأطفال المساكين وأرسلوهم إلى شمال إفريقيا حيث باعوهم عبيداً في سوق النخاسة بسعر بخس لربح بعض المال.

نهاية الحملات الصليبية ومصير البابوية[ه د/ه و]:

كانت الحملات الصليبية الدموية خارج وداخل أوروبا، والاحتكاك بالثقافة الإسلامية الشرقية المسالمة في أثناء الحروب الصليبية وأثناء الزيارات والتبادل التجاري وقت السلم، كانت لكلّ هذه الأمور آثار معاكسة (ضارّة) ضد سلطة الكنيسة البابوية. كان البابوات يتمتعون بسُلطة هائلة، مثل البابا إينوسنت الثالث (١١٩٨-١٢١٦) حتى كان له نفوذٌ أكثر من الأباطرة أنفسهم، وكان يستخدم نفوذه لتنظيم حملات صليبية لتغيير الواقع السياسي على الأرض، ليس في أوروبا الغربية فقط، بل كذلك في بيزنطة النصرانية الشرقية. ولكن تقوية نفوذ السلطة العلمانية والسلطة الدينية في آن واحد، قد أدّى لبعض التوترات الجديدة.

كان تأثير الحملات الصليبية في أوروبا القرون الوسطى كبيراً جداً. وأحياناً كانت أغلب أجزاء القارة موحّدة تحت السلطة البابوية، ولكن بحلول القرن الرابع عشر الميلادي، صار مفهوم النصرانية القديم مجتزءاً، وكان نمو الإدارات المركزية (أساس دولة الشعوب الحديثة) في طريقه إلى فرنسا، وإنجلترا، وبورغندي، والبرتغال، وقشتالة والأراغون ويعزى جزئياً إلى هيمنة الكنيسة في بداية عهد الحروب الصليبية، فوجد البابوات الأقوياء أنفسهم في حالة نزاع مع الأمراء الأقوياء، ولا سيّما مع الإمبراطور الرومانيّ المقدس. لقد شعّر الأمراء أنّ من حقهم تعيين الأساقفة للكنائس التي في أراضيهم وأوطانهم لأنها مصدر كبير من مصادر التأثير السياسي لصالحهم. لكن البابوات كانوا يرون أن هذا الحق هو من صلاحية روما فقط. بهذا وقع صراع حادّ حول تقليد المناصب بين الكنيسة والدولة في أنحاء أوروبا كافة.

ولكن الكنيسة الكبرى لم يُكتب لها البقاء. ففي عام ١٣٠٩م، أجبر ملك فرنسا البابا بطريقة أو بأخرى أن ينتقل ليعيش في مدينة أفينون في جنوب فرنسا وتحت حمايته، التي عرفت فيما بعد بـ (الأسر البابليّ)، وهذا زعزع مركز البابوية وجعله ضعيفاً جداً)، بحيث جعل بعض الحكومات تدعم مرشحيها الخصوصيين لمنصب البابوية، لهذا لم يمض زمنٌ طويلٌ بعد عام ١٣٠٠م، حتى صار البابوات كأنهم مجرد أحجار شطرنج في خضمّ الصراعات السياسية الأوروبية، وليسوا كما كانوا سابقاً قادةً عظاماً لشعوب أوروبا المتديّنة. وعندما أعيد البابا أخيراً إلى روما سنة ١٣٧٧م، كان العديد من البابوات يتنافسون للحصول على الاعتراف بهم، وأدّى هذا الأمر إلى تعاظم الإساءة إلى سمعة البابا الروحية، وبالتأكيد فقدان هيبته في عيون أتباعه المخلصين، لذلك فإن سمعته بقيت متدنّية منحطّة ردحاً من الزمان.

ربما كان الطاعون الأسود (الموت الأسود) الذي نزل بأوروبا في المدة ما بين (١٣٤٨-١٣٥٠م) الذي نُظر إليه أنه عقوبة إلهية جاءت لإنهاء فصول الحروب الصليبية بإهلاك خمسة وعشرين مليوناً من السكان، ففي إنجلترا وحدها، وأثناء ٣ سنوات، أباد الطاعون الأسود نصف عدد السكان الذين بلغ تعدادهم ٤ ملايين نسمة. أعقب ذلك موجات من تفشّي الأوبئة والأمراض الأخرى التي اجتاحت أوروبا وزادت في إضعافها، في إنجلترا أيضاً أدّت محاولات

ملاك الأراضي الزراعية (بمن فيهم الكنيسة) إلى القبض على العمال ورميهم في السجن – وهم أصلاً ندرة آنذاك – آت لانتفاضة كبرى في (شرق ووسط) إنجلترا، عُرفت انتفاضة الفرويين عام ١٣٥١م، ومع أنها قد اخمدت، لكنها تركت شعوراً بالسُخط والاستياء من أصحاب الثروة مالكي الأراضي الزراعية ومن الكنيسة أيضاً.

إنّ قسوة البابوية التي لا ترحم، والحروب الصليبية العدائية داخل أوروبا نفسها، ومحاكم التفتيش بإيحاءات البابوية (ومباركتها) قد أثرت سلبياً على أوروبا وأفرزت ثلاث ظواهر رئيسة:

١. العلمانية التي ترى فك ارتباط الكنيسة والدين النصراني بنظام الدولة وقوانينها.
٢. النزعة الجديدة لأصحاب داروين ونظرية التطور المعارضة لمبدأ خلق الإنسان والعقيدة النصرانية (التي كانت تعادي الدين على نحوٍ عام) التي أدت إلى عواقب خطرة أهمها فصل العلم عن الدين.
٣. الماركسية المادية والتفسير الجدلي للتاريخ على أساس أن الإنسان تحفزه الحاجة الاقتصادية والجشع المادي، وبافتراض أن الدين هو أفيون الشعوب وأنّ الربّ هو مصطلح من صنع البشر، منكرة تحفير الإنسان بالحوافز الإيمانية الربانية والآمال الروحانية والدينية.

نظرات الغرب المشوّهة عن الإسلام في القرون الوسطى وأوروبا قبل العصر الحديث[١٠][١١]

إن الإسلام في ذمّه لأهل مكة المشركين الوثنيين عُبّاد الأصنام قد وثّق في القرآن الكريم ادعاءاتهم مع الردود الإسلامية على هذه الادعاءات والمزاعم للرجوع إليها مستقبلاً. وقبل الخوض في هذه الادعاءات، فإن الله تعالى قد بيّن النية الحقيقية من وراء هذه المزاعم الكاذبة؛ وهو استعمالها بوصفها جزءاً من الحرب الإعلامية ضد الإسلام، فقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

وقال الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الصف: ٨].

وبالرغم من أن من حق المسلمين ردّ السوء بالسوء، لكن الله سبحانه وتعالى ينصح المسلمين أنه من الأفضل العفو عن أعدائهم متحرّين الصلح، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ۝ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشورى: ٣٩-٤٠].

جُلّ ادعاءات المشركين موجهة إما ضد مصداقية القرآن أو مشتملة على الإساءة إلى شخصية النبي محمد ﷺ وتشويه سمعته أما فيما يخص القرآن، فالادعاء أن محمداً قد زوّره واختلقه، أجاب عنه الله بقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ٣٨-٣٩].

والانطباع أن محمداً قد علّمه معلّم قد أنكرها الله بسهولة معلناً أن هؤلاء المعلمين (أو الرهبان) هم أعاجم أجانب في لغتهم (لا يتكلّمون العربية)، لكن القرآن قد نزل بلغة عربية صافية (وهي اللغة التي لا يستعملها أحد من هؤلاء المعلمين آنذاك)، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

والحقيقة أن الله وبّخ أهل مكة بقوة وأنبهم لادعائهم هذه الدعوى العرجاء، وهم يعلمون أنهم متضلّعون في اللغة العربية ويتقنونها، وبين الله عز وجل أن هذا الكتاب أُنزل على محمد ﷺ وهو بين ظهرانيهم جميعاً فقال الله تعالى: ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (يونس: ١٦).

وإضافة إلى ذلك فإن محمداً معروف بأميته (لا يقرأ ولا يكتب): ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ (العنكبوت: ٤٨).

أما فيما يخص تسفيه شخصية محمد ﷺ وتشويه سمعته: فقد وصفه المشركون والوثنيون أنه مسحور؛ لكن الله سبحانه وتعالى أجابهم:

﴿ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ (الفرقان: ٥).

﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (الفرقان: ٦).

﴿ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾ (الفرقان: ٨).

ومن ثمّ وصفوا محمداً أنه ساحر أو أنه مجنون؛ فردّ الله قائلاً: ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ (الذاريات: ٥٢).

وقالوا: إنّ محمداً مثيرٌ للفرقة والمشكلات، يفرق الناس وأعضاء الأسرة الواحدة؛ لكن الله رب العالمين ردّ عليهم أنّ محمداً هو رحمة للناس، والحقيقة أنه رحمة لكلّ العالمين ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء: ١٠٧). وقال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ (الإسراء: ٨٢).

كما ادّعوا أن محمداً حالمٌ يرى أضغاث أحلام، لكن الله رد عليهم بالنذير: ﴿ بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ۝ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأنبياء: ٥-٦).

وعندما زعموا أن محمداً شاعر أو كاهن، صرّح الله الواحد هنا بلا لَبْس وفصّل القول أن القرآن من عنده بالضبط كما أنزله إلى رسوله محمد ﷺ (عن طريق رسوله جبريل عليه السلام):

- ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝
- وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۖ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝
- وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۖ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝
- تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝
- وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴾ (الحاقة: ٤٠-٤٧).

وقال الله تعالى: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴾ (يس: ٦٩).

ومن ثمّ تتجلى بوضوح حكمة توثيق هذه المزاعم ورد الله عليها؛ فهي تزوّد المسلمين بمرجع مستقبلي عن هذه الاتهامات، وبذلك تمنحهم نوعاً من الحصانة التي تصبح حصانةً داخلية مع الزمن، لدرجة أن التعرُّض لمثل هذه المزاعم المكرَّرة أخيراً من قِبَل الأوروبيين والغربيين لا تؤدي إلاّ إلى مناعة مكتسبة إضافية. (أما فيما يخص انتشار الإسلام بحدّ السيف — فراجع الفصل الرابع).

ربما كانت هناك تهمة واحدة لم يستخدمها الوثنيون العرب البتة، لكنّ استخدمها الأوروبيون بطريقة متكرّرة ضد النبي محمد: هو أنه شهواني يحب النساء منتهكاً وضع المرأة والأسرة المسلمة!!! لكن الله دافع عن نبيه، الذي كان يقضي لياليه عبادةً تهجُّداً لربّه (لا تلذذاً بنسائه)، فوثّق ذلك في القرآن الكريم قائلاً:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل، ١-٦].

والأفضل أن يعلق على هذا الأستاذ جون تولان في كتابه الرائع (الشرقيون – الإسلام في التصور الأوروبي في العصور الوسطى) صفحة ٢٨-٢٩:

(التشريع القرآني... يقضي أن تحتفظ المرأة المتزوجة بممتلكاتها الشخصية (وباسم شهرة أسرتها بعد الزواج). فلهر الذي يقدّمه الأزواج يُعدُّ ممتلكات للزوجات وفي حالة الطلاق، فعلى الزوج إعادة ممتلكات زوجته. ولتوجيه تهمة الزنا لامرأة فلا بد من أربعة شهود. ويجب أن يعقب الطلاق مدة انتظار لا تقل عن ثلاثة أشهر (لاستبراء الرحم، وإن كانت حاملاً فتستمر مدة الانتظار حتى نهاية الحمل)، قبل التخلّص من الزوجة المطلّقة من بيته؛ ولابد للزوج من الإنفاق على زوجته (ولا سيّما الأم وأطفالها)، كذلك فإن الزواج المتعدّد غير مرغوب فيه، قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً﴾ [النساء: ٣]. ثم أضاف آخراً:

﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ [النساء، ١٢٩]. لذا فالزواج المفرد (بواحدة) هو كما يبدو الزواج المثالي. لكنّ زواج العرب المتعدّد (بعدة زوجات في آن واحد) لم يلغ، بل أصبح مقتصراً على أربع زوجات كأقصى عدد. ولكن هذا العدد الأقصى لم يتقيد به محمد نفسه: فالقرآن (سورة الأحزاب ٥٠) يعطي النبي استثناءً خاصاً من قيود العدد على الزوج: فكان عنده تسع نساء في وقت واحد. وهذا بالنسبة لمؤلفي النصارى المتزهدين، قد يكون مخزياً، فقد استخدموه لتصوير أن النبي مدفوع بشهوة الجنس. ولكنّ محمداً لم يتزوج حتى بلغ من العمر(٢٥) عاماً وبقي زواجه مقتصراً على واحدة الـ (٢٤) سنة أخرى، حتى موت زوجته خديجة عام ٦١٩م. وربما الأهم من ذلك أن زواجه المتعدد بدأ في المدينة، حيث صار قائداً سياسياً وعسكرياً مهماً: ومثل الحكام العرب قبله، فإن محمداً استخدم الزواج لتعزيز التحالفات السياسية المهمة، ولإظهار هيبته السياسية والاقتصادية (الكثير من زوجاته كبيرات في السن، وكلهن كنّ أرامل: إلا عائشة فهي زوجته العذراء البكر الوحيدة).

إنه بهذا المفهوم و الحسبان يأمر القرآن المسلمين بطاعة نبيهم بصفته قائداً سياسياً وقاضياً أيضاً. وحتى في هذه النقطة فن القرآن يؤكد صحة حقه بالزواج بأكثر من أربع زوجات، ولا سيّما حقه بالزواج من زينب، الزوجة المطلقة لحواريه وابنه بالتبني زيد (الأحزاب: ٣٧-٣٨). وهذه القصة أيضاً سوف تلوى بالأقلام المعادية من مجادلي اللاهوت النصراني، وسوف تستخدم لتكميل تصويرهم عن محمد أنه شهواني؛ زواج النبي المتعدد عندهم يقابل صورة رسموه بمخيلتهم لعدو المسيح.

ثم بينما كرّه وثبّط الناس عن الزواج، متنازلاً أنه هو فقط الأفضل أن يتزوج حتى لا يحرق بنار جهنّم» (١ الكورنثيين ٧: ٨)، فالقرآن هنا يشجع المسلمين العزاب أن يتزوّجوا (سورة النور ٣٢)؛ ليس هناك أي خطأ في الزواج وفي الجنس، ما دام في حدود النزاهة والاحترام المتبادل في مؤسسة الزواج)[١].

إن الزواج المتعدد هو إجراء احتياطي في حالة الضرورات: عندما تفوق أعداد النساء عدد الرجال:

- جلّ الحروب يخوضها رجال قد يقتلون مما يؤدي إلى ازدياد عدد النساء.

- نزلاء السجون أكثرهم من الرجال الذين قد تصل أعدادهم إلى ٩٨٪ من السجناء.
- الأمراض الوراثية المرتبطة بالجنس، مثل: داء كريستماس ذي المشكلة في تخثُّر الدم، فإن الذكور وحدهم هم الذين يصابون به ويموتون باكراً؛ بينما الأمهات والإناث يحملن المرض ولا يصبن به ويعشن كما يبدو حياة طبيعية في العادة.
- تأنُّث الطبيعة بسبب المواد الكيماوية أدى إلى قلة نسبة الخصوبة وأكثر من ٢٠٪ من الذكور مصابين بالعقم على مستوى العالم.
- نسبة الوليد الميت عند الولادة (مليص) وخديج الولادة الميت أعلى عند الذكور.
- في الولايات المتحدة الأميريكية يقال إن لذكورهم ميل للجنوسية (اللواطة أو فعلة قوم لوط) قد تصل ٢٥٪ مما يؤدي لترك الكثير من النساء بلا رجال.

وإضافة إلى ذلك، فإن مكانة المرأة في الإسلام عالية جداً لدرجة أن الجنة تحت أقدام الأمهات، كما هو مذكور. ثم إن مناسك الحج مبنيّة على أعمال امرأة: هي هاجر (أم إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام) تراوح بين شربها لماء زمزم (الماء المبارك)؛ وسيرها وركضها ذهاباً وإياباً بين الصفا والمروة.

ويسترسل الأستاذ جون تولان تحوّل تحول القيادة من بني إسرائيل إلى بني إسماعيل قائلاً: (والسورة الثانية من القرآن (البقرة) أمرت المسلمين بتغيير القبلة، موضع اتجاه الصلاة، من القدس إلى الكعبة في مكة. بعض الباحثين الدارسين اقترحوا أن هذا يشكل مخالفةً لليهودية بعد تقهقر اتفاقية المسلمين باليهود في المدينة (في أعقاب معركة أحد). لكن القرآن يشرح أن الكعبة بناها إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام.

كان إبراهيم حنيفاً يعبد إلهاً واحداً، والإسلام هو استمرارية لدين إبراهيم، الحنيفيّة. وإسماعيل، ليس الابن غير الشرعي المنبوذ كما يصوّره [فصل الخليقة بالإنجيل]، بل هو في القرآن، الابن الأول المفضّل عند إبراهيم، ثم إن الكعبة هي أقدم وأقدس مقام فهي بيتٌ لله الواحد، سابقة لمعبد سليمان في القدس. وهذا يسلّط الأضواء على ضرورة الانتصار على أهل مكة: وتنظيف الكعبة من قذارة الأصنام وإعادتها إلى أصل العبادة الصافية لرب إبراهيم.

ولـ في عام ٦٢٨م)، سار محمد والمسلمون نحو مكة بقصد الحج. فقابلتهم مجموعة من قريش خارج مكة وتفاوضوا على السماح لهم بالحج في العام المقبل، لقاء هدنة (١٠) سنوات (صلح الحديبية). وبدأ نجم الإسلام بالصعود، وتحول الكثير من حلفاء مكة إلى المسلمين. في عام ٦٣٠م، قام حلفاء قريش بمهاجمة بعض المسلمين؛ وأصبحت هذه هي الذريعة ليقود محمدٌ جيشاً تعداده (١٠) آلاف مسلم إلى مكة، التي استسلمت دون إراقة الدماء. فسار محمد إلى الكعبة ودمر ما فيها من أوثان وأصنام المشركين: وهكذا طُهِّر مقام إبراهيم)[١٠].

ولقد كان الكثير من الكتاب النصارى يصفون العرب المسلمين بأولاد إسماعيل، أو الإسمعيليين. وأثناء الحروب الصليبية في القرون الوسطى كان النصارى يشوّهون المسلمين بنعتهم أولاد إسماعيل الوثنيين؛ وادّعوا زوراً أن الراهب بحيرا وورقة بن نوفل كانا رهباناً مهرطقين منشقين عن النصرانية ومنفيين في الجزيرة العربية والشام، فقط لأنهم قالوا الصدق بالتبشير بمحمد نبياً ورسولاً.

وحين ازداد الاهتمام والطلب على النفط في الشرق الأوسط في الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين، ازداد الاهتمام بالعالم الإسلامي. فالمبشرون والأكاديميون على السواء بدؤوا يصادفون ويلتقون بالإسلام باهتمام متزايد بازدياد دور الدول الكبرى حسب مخططاتها في العالم من بعد الاستعمار. وفي هذه السنين فإن المهتمين بنظرات الغرب للإسلام مدينون لعملين شاملين لا يكاد يتفوق عليهما أحد:

- كتاب نورمان دانيل: **الإسلام والغرب: صنع صورة** (أدنبرة ١٩٦٠)،

- وكتاب ريشارد سوثرن: **الصور الغربية عن الإسلام في العصور الوسطى** (كامبردج ماسوشيتس ولندن ١٩٩٢).

ثم إن جون تولان في كتابه الرائع: (**الشرقيون – الإسلام في التصور الأوروبي في العصور الوسطى**) صفحة ٣٠–٣٩. يرى أن نجاحات الإسلام في حياة محمد ﷺ (بعد هجرته إلى المدينة) تختلف كلّ الاختلاف عن إخفاقات النصرانية في حياة عيسى عليه السلام: (وباقي القبائل البدوية الوثنية صارت مسلمة بعد ذلك؛ وكل الجزيرة العربية توحدت بالإسلام، تحت قيادة محمد السياسية والعسكرية. ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ (النصر: ١–٣).

وطبعاً، هذه كلها قصة مختلفة جداً عن بداية جهاد النصرانية؛ فعيسى، طُلب للموت بوصفه مجرماً من قبل رومان وحاولوا قتله وصلبه؛ وأتباعه، أقليّة نصرانية في إمبراطورية وثنية، قد قمعوا واضطهدوا لقرون. فلا عجب أن النصارى الأوائل كانوا يرون في القوة السياسة والعسكرية شراً، فروما هي تناسخ وتقمُّص لعاهرة بابل... لأنه لا توجد صورة إيجابية عن القوة السياسية للعهد الجديد.

ولكن الأشياء تبدو مختلفة في مفاهيم بداية الإسلام. فالله توّج المسلمين بالنصر منذ البداية كما يبدو؛ لذلك فلا داعي لذه القوة الدنيوية الأرضية أو لتجنُّب النجاح السياسي والعسكري).

ويواصل جون تولان: (ولم تكن غزوات المسلمين اقتحام أناس جدد أو أجانب إلى الهلال الخصيب، فالعرب منذ زمن بعيد كانوا أعضاء متحالفين في قوات الروم (البيزنطيين) العسكرية؛ وهم الذين (أي العرب) أنشؤوا واستعمروا الكثير من المدن في سورية: البتراء، حمص، حرّان، حلب (أديسا). وكانت التجارة بين سورية الرومانية ولبدو من الجزيرة العربية مستمرة دائماً؛ يتخللها صدامات عسكرية متقطعة. ولكن الجديد غير المسبوق أنه في عام ٦٣٤م، صارت قبائل الجزيرة العربية حلفاء متحدين لا خصوم متناحرين كالسابق.

وقوة المسلمين ووحدتهم تصادفت مع ضعف البيزنطيين لهذا صحيح جزئياً؛ فالكثير من الغربيين يعزون انتصارات الإسلامية لا لنصر الله القوي، بل للادّعاء أن إمبراطوريتي الروم والفرس قد أضعفت إحداهما الأخرى بحروب حديثة!!! الحروب عموماً تقوّي الجيش المنتصر، وتغذّيه بمزيد من المهارات والخبرات!، وفي السنين بين ٦٣٤ و٦٣٨، سيطر المسلمون على كل سورية البيزنطية. فقد انتصر المسلمون في معركتين بريتين أساسيتين رسمتا الهزيمة النهائية للقوات البيزنطية في سورية: أجنادين (٦٣٤)، واليرموك (٦٣٦)... وبموت عمر ابن الخطاب الخليفة الثاني عام ٦٤٤م، كان المسلمون مسيطرين تماماً على كل الهلال الخصيب وعلى مصر وعلى جل إيران؛ كانوا مستعدّين لدفع عجلة انتصاراتهم وفتوحاتهم لأبعد من ذلك في العقدين اللاحقين إلى الغرب مروراً بالمغرب و(في عام ٧١٩)، إلى إسبانية القوط الغربيين. وفي الوقت نفسه اندفعت جحافل قوات المسلمين في إيران وفي السند والهند وبلاد ماوراء النهر.

فالخليفة الأموي الوليد الأول (٧٠٥–٧١٥م)، حكم إمبراطورية ممتدة مما يعرف الآن بباكستان وأفغانستان إلى بلاد المغرب والبرتغال.

وكل ذلك أكد اعتقاد المسلمين أن الله في جانبهم، وهذا ما اشتكى منه بطريق القدس (أورشليم) في القرن السابع صُفرانيوس/ (هم يتفاخرون أنهم يخضعون العالم بأسره). وهذه الثقة العالية بالنفس في المهمة الإلهية كانت بالتأكيد هي المفتاح والعامل الأساس في نجاح وسرعة الفتوحات. ولا يقلُّ أهمية عن ذلك حرية الأديان المضمونة لرعايا غير المسلمين...

فاليهود (والنصارى)، كما يبدو، أساؤوا تفسير كتبهم المقدسة لدرجة إنكار أقدميّة الإسلام ونبوّة محمد. واتهم علماء الإسلام المتأخرون اليهود (والنصارى) بتحريف الكتب المقدسة: حاذفين بتقصُّد النبوءات المتعلقة بمحمد من التوراة والإنجيل. فاليهودية في شكلها الحاضر هي نسخة محوّرة غير كاملة للدين الحق الذي أنزل على إبراهيم في شكله الحاضر وعلى موسى. لذا فاليهودية الحاضرة يتسامح معها، ولكن يجب ألا تعطى ألبتة قدم المساواة مع الإسلام.

والنصارى، مثل اليهود، قد ضلّوا عن صفاء الأصل في اعتقادهم، وحرّفوا تعاليم الإنجيل. فبالنسبة لابن إسحاق (مؤلف سيرة النبي محمد ﷺ)، محمد هو الباراكليت (أي المبشّر بالخير والرحيم) الذي بشّر به جون (أي يحيى) (١٥: ٢٦)؛ لكنّ النصارى رفضوا وبعناد الاعتراف بذلك. فأتباع الديانتين يتركون أحراراً لاختيار البقاء على ديانتهم التقليدية، أو اعتناق الإسلام؛ ولن يكون هناك إجبار لهم.

إن مبادئ العقيدة النصرانية في التثليث والتناسخ (تقمُّص الله في شخص المسيح – سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً) هي التي أغضبت المسلمين (واليهود)؛ فإن من المخزي إدخال أقسام التثليث (الأب، الابن، وروح القدس) في وحدانية الرب التي لا تنقسم. هذان المبدآن المركزيان قد هوجما في القرآن، وأنكر ذلك بشدة كل علماء الإسلام، معطين اهتماماً أقل للاختلافات العقديّة الصغيرة الأخرى مع النصرانية. فالنصارى بذلك «مشركون»/ فبدلاً من عبادة الإله الحق الواحد، فإنهم أشركوا معه مجموعة من الشركاء بوصفهم آلهة صغيرة عيسى، والقديسين، والرهبان، والقساوسة.

وإذا كان المقيم، لنَقُلْ: في دمشق في نحو الثلاثينيات عام ٦٣٠م، يظن أنه قد غير حاكمه وعادله البيزنطي بحاكم عربي فقط، فإنه بعد قرن من الزمان تبيّن أن هناك تغيرات جوهرية قد حصلت على أرض الواقع: دمشق صارت عاصمة الحضارة الإسلامية الناهضة. وتحوّل الكثير الكثير من اليهود والنصارى إلى دين الإسلام؛ واللغة العربية صارت تستخدم بازدياد ملحوظ. ولا يوجد دليل صلب من دراسة إحصائية للسكان (ديموغرافية) ليخبرنا متى تحوّل المسلمون من أقلية إلى أكثرية، لكنّ التقديرات الذكية هي نحو ٨٢٥م بالنسبة لإيران، ٩٠٠م، بالنسبة لمصر وسورية، والعراق. وبينما نملك قصصاً لشخصيات بارزة التمست بفاعلية وإيجابية التحول واعتناق الإسلام لكن في كثير من الحالات كان «التحوّل للإسلام» ربما سلبياً بلا فاعلية: وذلك بعدم التماس طقوس تعميد النصارى الشعورية والقربان المقدس، فالكثير منهم توقفت نصرانيتهم من دون اختيارهم التحول إلى الإسلام وانخفضت أعداد الذميين تدريجياً وباستمرار، وازدادت بالمقابل أعداد المسلمين تناسبياً.

وفيما يخص المسلمين، كان هذا هو نظام الأشياء العقلاني والطبيعي. فالله كافأ المؤمنين بالسيادة على أغنى بلدان الأرض. وهو (الله) الذي أظهر تفوُّق الإسلام على النصرانية (واليهودية) مرتين: الأولى عبر القرآن، ثم بإخضاع اليهود والنصارى وخضوعهم بوصفهم ذميّين لبيضة الإسلام.

إن الصعود النيزكي للإسلام يبدو معجزة حقاً: حفنة من المحاربين من الصحراء يخضعون أغنى وأكثر العالم سكاناً لأعظم وأقوى الإمبراطوريات. فبالتأكيد، الله قد فضّل دين الإسلام وأراد من رعاياه الجدد التحوّل إلى دينه. والغالبية سوف (تدريجياً وعبر عدة أجيال) تستنتج هذا الاستنتاج نفسه: والغالبية ستعتنق الإسلام لذلك ولكن الذين رفضوا التحول إلى دين الإسلام، واختاروا البقاء على نصرانيتهم، وجب عليهم الإجابة عن السؤال الهائل: **لماذا مكّن الله هذه النجاحات المذهلة لدين الإسلام؟**

ويخلص الأستاذ جون تولان أن الرمز الإسلامي الأعظم قوةً كان: (منحوتاً في مسجد قبة الصخرة، في المدينة المقدسة (القدس). النقش يقول: إن الخليفة الأموي عبد الملك بناه عام ٦٩٢م... وهو أول أثر تذكاري في فن العمارة الإسلامية، بُنِيَ على موضع معبد القدس الثاني، الذي دمرته الجيوش الرومانية عام (٧٠) بعد الميلاد. في إعادة بناء

على موضع العبد المرتبط بالملوك القدامى سليمان وداود، عزز الخلفاء الأمويون دعوتهم لميراثهم، وهو مصدر الشرعية في عيون رعاياهم – اليهود، والنصارى، والمسلمين. واختيار الموضع عزز القرار القوي: الإسلام هنا جاء ليبقى؛ واستمر الإسلام ونسخ ما قبله من اليهودية والنصرانية. وتعلن النقوش المكتوبة على خارجه، وبآيات قرآنية، وحدانية الله ومهمة نبيه محمد؛ بينما النقوش في داخله بالمقارنة، تحوي آيات قرآنية ذات علاقة بالمسيح، مؤكدة دور عيسى بوصفه نبياً بشرياً، وجازمة أن الله لا يمكن أن يكون له ولد.

وعلى جبل المعبد في القدس، وبمسافة قصيرة من كنيسة القيامة، تعلن النقوش على قبة الصخرة وبوضوح أن المسلمين هم الوارثون الحقيقيون لعيسى؛ وليس النصارى الذين اتخذوه رباً بجانب الربّ الحقّ الواحد... ولم يكن هذا كله سهلاً بالنسبة للنصراني (المتعصب) فلقد استُثني التصوّر الانتصاري (الإسلامي) للتاريخ (عند كُتّاب النصارى)... وعُدّت الانتصارات العربية عقوبة (إلهية) لذنوب النصارى)[١٠].

وهكذا فإن جون تولان يشرح الأسباب الأساسية للتصوّر المشوّه والكاذب للإسلام عند النصارى الغربيين منذ القرن السابع ن أسباب النظرة المشوهة الغربية عن الإسلام سببها كما يأتي: جهلهم (قلة المعرفة عن الإسلام)، والخوف من الإسلام [(إسلام – فوبيا) من رواسب خوف القرون الوسطى من توسع الإسلام الإقليمي]، والعناد (بسبب الحقد وكره ثقافة التغيير للعادات حتى لو كانت هذه العادات خاطئة)، (مع) أوساط الدعاية العدائية (المتكالبة في اختلاق أخبار كاذبة، أو لإثارة الحوادث الصغيرة درامياً لاستفزاز الأحقاد في المجتمع وتسويقها بوصفها حوادث وأخبار إضافية في حلقة خبيثة – من أجل جني الفوائد المادية لهذه الأوساط الدعائية) وفي تاريخ العصور الوسطى كان النضال حول إسبانية، سقوط الدويلات الصليبية، قرصنة البحر الأبيض المتوسط، سقوط القسطنطينية الوضع القلق لفيينا، كلها ساعدت على تأجيج العداوة والمخاوف.

لكن ديفيد بلانكس، المؤلف الآخر مع مايكل فراسيتو في كتابهم الممتاز (**نظرات الغرب للإسلام في أوروبا العصور الوسطى وأوروبا الحديثة – إدراك الآخر**) يُعدُّ (عقدة النقص الثقافية الأوروبية) سبباً لنظرتهم الكاذبة عن الإسلام (في العصور الوسطى، كانت الحضارة الإسلامية متفوّقة تماماً على منافستها النصرانية، مقدّمةً تقدماتٍ جذابةً في فن العمارة والقانون والأدب والفلسفة وفي الحقيقة، في شتى الفعاليات الثقافية.

لذلك فإنهم من موقع الضعف العسكري، وربما الأهم الضعف الثقافي الحضاري الذي جعل أوروبا النصرانية تطوّر صوراً سلبية، بعضها لا يزال حياً باقياً إلى اليوم الحاضر. وجزئياً: فإن هذه العداوة كانت نتيجة الصراع السياسي والعسكري المستمر، ولكنها كانت أيضاً ناتجة من الإحساس الغربي بتخلّفه الحضاري (الثقافي) لذلك فالحاجة الغربية لإنشاء صورة للمسلم، وللآخر كانت عملية ثنائية؛ جاءت لتهيمن على أحاديث العصر قبل الحديث بما يخص الإسلام فمن ناحية، اختلقت أوروبا صورة للشرقيين، والمغاربة، أو الأتراك التي كانت غريبة كلّياً وشرّيرة كلّياً ففي المجال العام وفي مجال آداب المتعلمين، صُوّر المسلمون على أنهم جبناء، ومنافقون وذوو وجهين، وشهوانيون، ومنغمسون باللذات الذاتية ووثنيون يعبدون الأصنام وثالوثاً من الآلهة الكاذبة! ومن ناحية أخرى، فإنّ اختلاق هذا القالب المكرر والكذب الواضح ويسماجة مكّن النصارى الغربيين من تعريف أنفسهم. وبالفعل صار المسلم بهذا المعنى الصورة السلبيّة (الفوتوغرافية) لفهم الصورة الذاتية النصرانية المثالية التي تصوّر الأوروبيين على أنهم شجعان مؤمنون ذوو قيم وأخلاق، يؤمنون بالرب الحق الواحد وبالاعتقاد الحق الوحيد.

ويستطرد ديفيد بلانكس قائلاً: (وفي الوقت الذي كانت صقلية وإسبانية والدويلات الصليبية حقول قتال، لكنّها كانت أيضاً مواضع تبادل ثقافي مهم؛ فمن الملحوظ مثلاً أن الصليبيين الذين بقوا في الأراضي المقدسة كانوا متطلعين بالثقافة العربية – الإسلامية المحليّة على نحوٍ أفضل من الصليبيين القادمين الجدد. «قصة أسير»

لمؤلفها سير فانتيس تعطي الانطباع نفسه، وكذلك تاريخ صلاح الدين الذي عَدُوّه خصماً محترماً موقّراً ذا قيمة وبالتدريج تسللت الأقاصيص عنه إلى أوروبا وترعرت لتصبح أساطير. وبالطبع كانت هناك تبادلات علمية مهمّة ربما أوضح مثال على ذلك يوجد في علماء بيتر الموقر وزملائه، وأهمهم روبرت من كيتون الذي استشار علماء المسلمين من أجل ترجمة القرآن إلى اللاتينية، والفكر النصراني مدين جداً لعلماء الإسلام وفلاسفته ولا سيّما ابن سينا الذي كان محترماً في مترجمته لأرسطو طاليس. وفي الأدب أيضاً قام الإسلام بتأثير إيجابي في تطور الثقافة الأوروبية، وبالنتيجة، سواء كان أجدادنا من العصر الحديث يستشعرين بذلك أم لا، فإنه كان هناك تبادل إيجابي كثير عبر الحدود العدائية).

ثم يقول ديفيد بلانكس في فصل الكتاب المعنون «**بقاء مفاهيم العصور الوسطى**» يناقش فيه أن نظرات الغرب عن الإسلام قد قُنّنت في العصور الوسطى.

(من القرن الحادي عشر وحتى أواسط القرن السابع عشر كانت هجمات الكتاب الغربيين التحقيريّة قد تولّدت من عقدة النقص المستمرة أمام الحضارة العربية.

ولكن في خضم القرن السابع عشر، ما عادت الدول الإسلامية تشكل خطراً سياسياً، وابتدأ الغرب يطوّر نظرات العلمانية الجديدة التي تفكك اللغز الديني وتقلل من خطر الإسلام بوصفه عقيدة (أيديولوجي) مناوئة: لذا ففي المرحلة الحديثة، صارت المواقف التحقيريّة تنبع لا من عقدة النقص، بل من الإحساس بمركزية أوروبا في التفوّق الثقافي. لقد شهد القرن السابع عشر نهاية الحروب الدينية، واعتراف الكنيسة الكاثوليكية النهائي بالبروتستانتية، وهبوط وتراجع الإمبراطورية (الخلافة) العثمانية، وظهور نظام الدول الأوروبي، وعلمانية الحكومات التدريجي، وتطوّرات تقنيّة جسيمة في صناعة السفن وفي صنع السلاح، وبداية الاستعمار والمستعمرات في العالم الجديد، وإقامة نظام الرأسمالية وانتصار نظام مركزية الشمس، وروح جديدة في الحرية الشخصية (والمصالح الفردية) والعقلانية. لذلك فإن أواخر القرن السابع عشر وبدايات القرن الثامن عشر يصلح أن يكون مرحلة انتقالية من العصر قبل الحديث إلى العصر الحديث. والقرن السابع عشر كان أيضاً نقطة التحول اللغوي: فكلمة «إسلام» ظهرت أول مرة في اللغة الإنجليزية عام ١٦١٣م، وفي الفرنسية عام ١٦٨٧م واستخدام المصطلح العربي الصحيح كان يعني ظهور وعي جديد من جانب الأوروبيين، بالرغم من أن اسم التمييز القديم الخاطئ وقليل الاحترام (المحمّدية) قد بُدّلت. ولكن ببطء شديد (يرفض المسلمون تسميتهم بالمحمديين وتسمية الإسلام بالمحمديّة لأنهم يعبدون الله وحده لا النبي محمداً). ولكن معجم أكسفورد بالإنجليزية ما زال يُعرّف الله على أنه اسم الرب عند المحمديين، وهو خطأ قد يكون واضحاً من الناحية السياسية أيضاً، أنه غير صحيح في تاريخ مصطلحات المعاجم الحديثة.

ولكن حتى اليوم صدر كتاب لمؤلفه تيموثي جورج بعنوان: (هل أبو عيسى هو ربُّ محمد؟) وهو عنوان مشتق من بقايا النظرة الخاطئة لأوروبا القرون الوسطى عن الإسلام).

ومع ذلك فإن هناك شيئاً قد تغير فاليوم وفي قائمة تصنيف (كاتالوج) الكتب المطبوعة العامة والموجودة في المكتبة البريطانية (ما بعد ١٩٧٥)، يوجد ٦،٤٤٨ عملاً تحت كلمة إسلام، وماكسيم رودينسون قد بدأ مُصيبتها عندما قالت: «نحن مفتونون بالإسلام».

وبعد الحرب العالمية الأولى بدأ الباحثون والدارسون يبدون اهتماماً ملحوظاً في نظرات الغرب عن الإسلام. وبعد الحرب العالمية الثانية صار الحقل حقيقة قائماً بذاته، لكن أصلاً بدأت الدراسات تظهر في القرن التاسع عشر، وقد عكست فضولاً وليداً حول تأثير الإسلام في ثقافة أوروبا في العصر قبل الحديث. كان الباحثون والدارسون الإسبان والفرنسيون والإيطاليون أول من أبدى هذا الاهتمام ولا سيّما في عالم الدراسات الأدبية)[١١].

ولذلك صار اسم النبي محمد ﷺ بذاته هدفاً للكتّاب النصارى في العصور الوسطى، وقاموا بليّه وتحويره إلى (مفردات إنجليزية وكلمات غريبة):

- مخمت،
- ماخوميتوس،
- ماخوميس،
- مهمّت،
- ماهون،
- ماهوميس،
- ماهومّيت (يلفظ ماهوم – ميت)،
- ماهونس،
- ماهوميت،
- ماهاوند. بعض تصويرات العصور الوسطى كانت رسوماً ساخرة (كاريكاتورية) فجّة (وغير مصقولة) مثل شكل ما هاوند، الصنم او الظالم الوثني الذي يظهر في دراما العصور الوسطى الشعبية.
- ماهاون،
- ماهوميت،
- مالفوميت،
- ماثوموس،
- ماوميت،
- مامد،

ثم إن النبي محمد ﷺ صوّره الكُتّاب النصارى على أنه:

- المضاد للمسيح أو المؤدي إلى المسيح الدجال (معاذ الله).
- النبي الكاذب أو المبتدع الأكبر في الهرطقة (معاذ الله).
- الصنم الذي يعبده الشرقيون (المسلمون) (استغفر الله).

فهذا جون الدمشقي (مات ٧٤٩م، واسمه يحيى بن منصور بن سرجون) يدّعي أن (نبياً كاذباً.. اسمه مامد، وهو قد تعرّض عفوياً لرؤية العهد القديم والعهد الجديد (من الإنجيل) ويظن أنه التقى راهباً آريانياً، ليكوّن بعد ذلك هرطقة خاصة به) والراهب الأريانيّ المعنيّ هنا هو بلا شك (بحيرا)، فبدلاً من قبوله مهمة النبي الإلهية، فعلى ما يبدو أنه هنا يؤدي دوراً لتكوين هرطقة النبي. وجون هنا يجعل بحيرا مهرطقاً آريانياً من أجل نفي النبوة، وتشكيك زوراً بارتباط الإسلام بأخطاء الهرطقة (الآريانية مبنية على اعتقاد آريوس أن المسيح لا يساوي الرب بالجوهر – ومن ثمّ اعتبرت الكنيسة اعتقاد آريوس هرطقة) (صفحة ٥٢ من كتاب الشرقيين (جون تولان)، وعبر عملية التصوير الكاذبة، والزعم بعبادة الشيطان، صار الإسلام محطم التماثيل وثنياً، وحضارته بربرية، والإيمان بالإله الواحد شركاً ووثنيّة، وهكذا. ومع ذلك فإن هذه القوالب المتكررة المشوّهة هي في دلالتها صارت «حقيقة». صارت حقيقة لأنها كانت بالنسبة للجمع الأكبر من الأوروبيين في العصور الوسطى وبدايات العصر قبل الحديث، المصادر المتوافرة بسهولة لفهم (أو بالأحرى يجب أن نقول: لسوء فهم) الإسلام.

فلماذا هذا التصوير الزائف والمستمر عن الإسلام، بالرغم من توافر المعلومات الأكثر مصداقية وصحةً عن المجتمع المسلم وعقائده؟ الإجابة سهلة: لقد كان الإسلام يشكل خطراً محسوساً ومدركاً ضد النصرانية، وهو الذي أدى للإنكار أو التشويه الجذري لحقيقة الإسلام. إن تصوير الشرق الإسلامي بالشياطين كان تقليداً غربياً طويلاً وعميق الجذور – يمتد عبر قرون، من بداية حقبة العصور الوسطى حتى نهاية القرن العشرين. ولم تكن حتى النصف الثاني من القرن السابع عشر حين ظهرت أصوات لصالح التسامح والانفتاح على الإسلام وصارت تسمع على نحو واسع.

فمثلاً كما أوضح (كولباش) في تفحّصه للإسلام في ما يسمى (غلوسا أوردينارية): أي وجود العقيدة الإسلامية في تعليقات نصارى العصور الوسطى على الإنجيل نحو ١٢٢٠–١٢٤٠)، استعار الباحثون الدارسون

النصارى بوعي وإدراك الأفكار المسلمة. ففي القرن الثاني عشر قام علماء الاهوت النصراني بدراسة القرآن والترجمات العربية للنصوص القديمة. وهي ممارسة اتبعها أساتذة القرن الثالث عشر أمثال فيليب قاضي القضاة، جين دي لاروشيل وأليكساندر من هيلز. واستمرت أعمالهم متأثرة بتقاليد العلوم العربية – الأرسطوطاليسية[١١].

والكوميديا الإلهية لـ (دانتي) يمكن تتبع إنشاتها من معراج النبي محمد ﷺ، (وهو صعوده المعجز إلى السماوات العلى والجنة) المذكور في القرآن، وفصلها صوفية المسلمين مثل ابن عربي، ولكنّ المهم أن وضع دانتي كلاً من ابن سينا، وابن رشد، وصلاح الدين في الأعراف، (عند النصارى وهي موطن الأرواح التي تحرم دخول الجنة لغير ذنب اقترفته كأرواح الأطفال غير المُعمّدين)، بخلاف محمد وعليّ المستقرّين في الهوة التاسعة بين المنشقّين (عن الكنيسة)!!!.

وفي بداية الحملة الصليبية الخامسة قام الكاتبان جاكس دي فيتري (أسقف عكا)، وأوليفر من بادربورن (قانوني كولان) برفع الآمال عالياً مدعين أن الصليبيين سوف يقهرون مصر والعالم الإسلامي. فكتب هذان الكاتبان ما يأتي:

(الاستيلاء على مكة وبعثرة عظام محمد (ظانين خطأً أنه يرقد في مكة!!!) ستكون معداً، كما هو متأمل، للانتصار الفاصل للنصرانية على الإسلام). وآمالهم تعززت بداية بالاستيلاء على دمياط، ولكنها ذهبت أدراج الرياح بعد ذلك، عندما وقع الصليبيون في الكمين المصري، وفي المفاوضات التي أعقبت ذلك لإطلاق حريتهم، خسروا بذلك كل ما أخذوه أولاً[١٠].

إضافة إلى ذلك (فإن اليكساندر دو بونت، في كتابه: «رومان دي ماهوميت»: أي الرومان منذ عصر محمد) يدّعي أن النبي أباح لكل مسلم الزواج من عشر نساء، وكل امرأة مسلمة بالزواج عشر مرات كذلك. وفي الدراما وقصص الخيال الشعبي، فإن الشرقيين الوثنيين: أي المسلمين، والمغاربة عُبّاد الأصنام جميعاً يقدمون ولاءهم لإله اسمه ماهاون أو ماهاوند، وهو غالباً جزء من هيكل آلهة الشعوب الوثنية، الذي يشتمل أيضاً على أبولين (ملاك أو شيطان الجحيم)، تيرماجنت (امرأة سليطة صاخبة مشاكسة) وأصنام الشياطين الأخرى.

ثم إن الأوروبيين (البيض) فسّروا آسوداد لون المغاربة على أنه علامة ولادية للشرّ. فالأسطورة النصرانية التي تفسر أصول الأجناس، داكني البشرة، بما يشمل مسلمي إفريقيا المغاربة، إنما هي مشتقة من العهد القديم، وهي قصة حام أو سام بن نوح: الذي لُعن لرؤيته أبيه عارياً. وعندما ظهرت شخصية شكسبير أوثيلو (أو عطيل) النبيل المغربي، على مسرح لندن في القرنين السادس عشر أو السابع عشر، كان في جوهره نمطاً رمزياً لا تصويراً طبيعياً لجنس أثني مخصوص. وعُطيل لم يُصنّف في عرقية واضحة تاريخياً ومعيّنة: ولكنّه كان رمزاً مراميا للظلام والخطر المتهدد على طرف المملكة النصرانية، وبشكله المجرد هذا فإن عطيل المغربي قد ارتبط بعدد من المصطلحات ذات الصلة – «مور»: أي مغربيّ، «تركي»، «أوتومايت»: أي عثماني، «شرقي»، «محمدي»، «مصري»، «يهودي»، «هندي» – وكلها صُوّرت بهتان بالرغم من معارضتها للعقيدة النصرانية وقيمها، وبالنظر بوجه الخصوص إلى أهمية لقب عطيل المغربيّ، وصف (جـ.ك) هنتر كيف تمّ فهم هذا المصطلح:

«كلمة مغربي (مور لها دلاله عرقية واضحة منذ البداية: معناها الأول في معجم الإنجليزية القديمة هو «محمّدي» التي بذاتها تعني مجرد «كافر»، «غير نصراني»، «بربريّ». المغاربة (مورز) كانوا كفّاراً أجانب، بالضبط مثل الأتراك: فالكلمة مغربي (مور) كانت مبهمة جداً من ناحية الدراسة الأثنية، وغالباً على ما يبدو كانت تعني شيئاً فوق «الأجنبي داكن سحنة البشرة» قليلاً، لكنه ليس مبهماً في كونها ذات علاقة متضادة للمبدأ الأوروبي للنصراني الأبيض المتحضّر».

وهكذا كما رأينا أن الإسلام المصوّر كشرٌ، وأحياناً يحول جذرياً لعبادة الشياطين ويُعمل منه وحشاً. في أحيان أخرى، يربط الإسلام بشرّ السحر الأسود، والقوى الخفية، وعبادة الشياطين أو الصنام، ولكن هذه تصوّرات كانت تحدث عادةً في الثقافة الشعبية، أو في المجتمعات ذات الاتصال المحدود أو غير المباشر بالثقافة الإسلامية. وكما رأى (جاك داميكو):

«مشكلة احتواء الإسلام، سياسياً وفكرياً، صارت صعبة بسبب الجوانب التي تُعدُّ فيها الثقافة (الحضارة) الإسلامية متفوّقة بحقّ... عدوٌّ جذاب وفاعل كالإسلام يجب تصويره على أنه تشويه خطر للكنيسة الحقّة، مهزلة ومحاكاة ساخرة للحضارة، ومحمد فيها هو نبيٌّ كاذب، الجهاد فيها انحراف مارق للحملات الصليبية، وكتابها القرآن مجموعة من الأخطاء والأكاذيب التي تهزأ بالإنجيل»[١١].

إن الدراسة الاستشراقية كما يصفها إدوارد سعيد لم تولد بغزو نابوليون لمصر عام ١٧٩٨؛ لقد بدأت تظهر في العصر الذي كانت العلاقة الأوروبية مع الشرق غير مبنية على السيادة الاستعمارية بعد – وعندما كانت العلاقة علاقة القلق والرعب من جانب الأوروبيين. كما أشار أحد الباحثين الدارسين:

«... اختلاق الصورة المشوّهة للإسلام كانت غالباً ردّة فعل للتفوق الحضاري الثقافي للإسلام، ولا سيّما في الأندلس». إن عقدة النقص عند الغرب النصراني، التي ابتدأت بالصدمة في أثناء فتوحات الخلافة الأولى، قد تجدّدت وتعزّزت بظهور القوة الإسلامية الجديدة، الأتراك العثمانيون الذين انجرّوا عام ١٤٥٣م، ما أخفقت في تحقيقه الجيوش الأموية عام ٦٦٩ وعام ٦٧٤، وهو الاستيلاء على القسطنطينية. وسلسلة الغزوات العثمانية وانتصارات الفتوحات اللاحقة، بما يشمل أثينا عام ١٤٥٩، أوترانتو عام ١٤٨٠، رودس عام ١٥٢٢، بودابست عام ١٥٢٦، وفي عام ١٥٢٩، عندما اندفع الأتراك مطبقين وكادوا يستولون على فيينا، قبرص عام ١٥٧١، وكريت عام ١٦٦٩، أدى ذلك لما يسمى الفزع التركي.

والمثال المثير للانتباه في التصوير الغربي للحكم الشرقي يمكن رؤيته في الشعر الملحمي لـ جون ميلتون: (الفردوس المفقود) طبعت أولاً عام ١٦٦٧، حيث صُوّر الغرب على أنه ملائكي؛ والشرق شيطاني. تصوير ميلتون للشيطان مبني على موقف عدائي سلبي النزعة بأغلبه نحو الثقافة والحضارة الإسلامية، وهذه هي طريقة التفكير المغروسة بعمق عن الشرق التي كانت (وما زالت) سائدة في الغرب. فمثلاً تصوّر ميلتون عن قوة الشيطان وثباته، في كتبه: الأول والثاني يصوّر الشيطان على أنه قائد بطولي يبقى صامداً في مقاومته الملحمية على الرغم من هزائمه وسقوطه. مثّل بذلك النظام العثماني، الذي حافظ على قوّته بالرغم من الهزائم الكبيرة التي مني بها، كمعركة أكرة (هزيمة بايزيد أمام تيمورلنك) عام ١٤٠٢م، والمعركة البحرية في ليبانتو عام ١٥٧٠، فالشيطان لهكذا يصوّر المسلمين العثمانيين بلملم شتات جيوشه من الشياطين ويوحدهم في جهاد مستمر ليتحدى قوى الخير! ومثل الشيطان، فإن السلطان العثماني كما يُرى على صورة للاستبداد، والزهو، والكبرياء، وهو يقود إمبراطورية الشر في نضال عنيف لقهر المملكة النصرانية ولإطفاء الإيمان الحق[١١].

ثم إن صورة القرون الوسطى عن الإسلام قد رسمت بشكل رسم (كارتوني) يصوّر النبي محمداً ﷺ واقفاً على منصة عالية يعبده المسلمون تحت تأثير الشيطان؛ ولكنّ هذا الرسم الكارتوني كان صورة غلاف الكتاب الجيد (الشرقيون – الإسلام في التصور الأوروبي في العصور الوسطى). ثم في عصرنا الحديث وبالحجة الكاذبة لحرية الصحافة قام (كورت وسترغارد) البالغ ٧٣ عاماً وهو مصور (الكاريكاتور) للصحيفة الدانماركية (جيلاندز – يوستن) في ٣٠ أيلول ٢٠٠٥، بنشر ١٢ صورة مرسومة بسخرية عن النبي محمد ﷺ أحدثت زلزالاً عالمياً وضجّة واسعة في العالم الإسلامي، احتجاجاً عليها واستنكاراً لمضمونها. فقامت سورية والمملكة العربية السعودية بسحب

سفرائها من الدانمارك، وقوطعت كل البضائع والأطعمة الدانماركية في أنحاء العالم الإسلامي الذي عدّ سبب هذه الصور هو العنصرية والخوف من الإسلام. ولم تعتذر الدانمارك رسمياً. ولكن حين أعيد طبع هذه الصور في صحيفة (فرانسوار) في باريس، قام الناشر للصحيفة (ريموند لاكه) بحكمة بطرد المدير المحرر للصحيفة (جاكس ليفرانك) وقال واصفاً قراره: «كرمز قوي لاحترام العقائد والمعتقدات لكل شخص».

وفي استفتاء شعبي في سويسرا تمّ التصويت ضدّ بناء منارة المساجد في أواخر عام ٢٠٠٩، ووزعت ملصقات جدارية تُظهر إمرأة مُنقّبة وخلفها عدة منارات بشل صواريخ منتصبة على العلم السويسري ذي الصليب الأحمر. هذا بالرغم من جمال المنارة كبناء معماريّ اسلاميّ، وبالرغم من أن سويسرا هي بلد معروف بحريته الديمقراطية. إنّما هو الخوف من انتشار الإسلام؛ فشبابهم يعزف عن النصرانية، ولا يتزوج، ومن يتزوج منهم يحدّد نسله؛ في حين أن جالية الإسلام تقبل على الإسلام، ويتزاوجون منذ نعومة أظفارهم، ويتكاثرون ولا يحددون نسلهم. لذلك فإنّ سويسرا تخشى أن تتحول في يوم ما إلى بلد مسلم يحكمه الإسلام.

وهذه الصور الساخرة هي رواسب النظرة المشوّهة عن الإسلام منذ القرون الوسطى.

بل في القرن العشرين قام الكاتب سلمان رشدي بإعادة وتأكيد صورة القرون الوسطى المشوهة عن الإسلام مبنية على جهله وعلى تشويهه المقصود لآيات القرآن. فطبع كتابه (آيات شيطانية) في أيلول ١٩٨٨، الذي حوى تصويراً خالياً من الاحترام للنبي محمد. وبرأي رشدي، فإنّ محمداً (وهو يسميه ماهاوند في كتابه) قد أضاف آيات للقرآن متقبّلاً بها آلهة ثلاثة كانت تعبد في مكة كأشياء ربانية؛ ولكن محمداً بعد ذلك ألغى هذه الآيات بقوله: إن الشيطان أوحى لي قولها احتراماً لمشاعر مكة (ومن هنا سمى كتابه آيات شيطانية). لكن رشدي ادّعى أن هذه الآيات إنما أوحاها جبريل عليه السلام. وكتاب رشدي مُنع في أغلب البلدان ذات الأكثرية المسلمة. والحقيقة أن رشدي قد بنى كتابه كله على رواية موضوعة وقصة كاذبة هي قصة الغرانيق العلى (وهي الطير العوالي إشارة لاستخدامها كأصنام) التي رفضها علماء الإسلام؛ وهكذا فالكتاب جاء متمّماً بالجهل وتشويه الإسلام المقصود.

حتى في القرن الحادي والعشرين، فإن تعليقات (كيلروى – سيلك) التحقيريّة للعرب والمسلمين هي من رواسب صورة العصور الوسطى المشوهة للإسلام والمسلمين. (روبرت كيلروى – سيلك) كان عضو برلمان لحزب العمال في منتصف عام ١٩٨٠م، ثم تركه ليعمل في الوسط الإعلامي بأجر عالٍ (استعراض كيروى – تلفاز BBC1) وكان عرض كيلروى يوميّ منذ عام ١٩٨٦م، حتى ٢٠٠٤، عندما عُلّق استعراضه، ووقّف كيلروى عن العمل للتحقيق معه بعد نشره مقالة عنوانها: (نحن لا ندين للعرب بشيء) نشرت في (صانداى اكسبريس) في ٤ كانون الثاني ٢٠٠٤. وفي مقابلة تلفازية في إذاعة تلفاز BBC (كلام شديد) اتضح أن كيلروى اخصّ باعتقاده أن الإيرانيين هم العرب ثم ربط العرب معتقداً أنهم شعب ذو صلة بالأفغان مما يوضح بجلاء، بالنسبة لقاده – جهله العام بالعرب. وهذه إحدى فقرات مقالته:

«يقال لنا: إن العرب يكرهوننا؟ بسبب تحريرنا العراق؟ ولدعم حياة شعوبهم في مصر والأردن، لتسمي مثالين اثنين فقط، لتمويلهم بكميات هائلة من المساعدات؟ لتزويدهم بالعلم، والطب، والتقنيات، وكل أنواع فوائد الغرب ومعوناته؟ يجب أن يركعوا على ركبهم ويشكروا الرب لكرم الولايات المتحدة الأمريكية. وكيف يظنون بما نشعر به نحوهم؟ أننا نعشقهم للطريقة التي قتلوا فيها أكثر من ٣٠٠٠ مدني في (١١) أيلول، وأننا نرقص في الشوارع الحارة المغبرة للاحتفال بجرائمهم؟ أننا معجبون بهم لجرائم قتلهم بدمٍ بارد في مومباسا، واليمن، وغيرها؟ أننا معجبون بهم لأنهم مفجرون انتحاريون، قطاع أطراف وأعضاء، ومضطهدو النساء؟».

أدّت المقالة إلى استنكار واسع من المجلس الإسلامي البريطاني ومن لجنة المساواة العرقية. وطالبت جريدة (جارديان) بمحاكمته لـ«تحريضه على الأحقاد العرقية». كما اتّهم أنه لا يبدو قادراً على التفريق بين الإرهابيين الذي قاموا بجرائم ١١ أيلول ٢٠٠١، وبين العرب العاديين الذين يشكلون سكاناً يتجاوز الـ٣٠٠ مليون. وقال خبير من جامعة يورك متخصص بشؤون الشرق الأوسط: إن مقالة كيلروي تبدي تحيُّزاً عرقياً خطراً، وإن كيلروي لا يملك معلومات تاريخية تمتد ما وراء ١١ أيلول. فالعالم يبتدئ في ١١ أيلول ٢٠٠١ بالنسبة لكيلروي، ويجب تعليمه أن العالم يبتدئ حقيقة قبل ٣٠٠٠ سنة من ولادة المسيح. إن قرار إذاعة BBC، بإيقاف عرض برنامجه اليومي، ومن ثمّ طرد كيلروي من المؤسسة استحق كل احترام وتقدير من كل البريطانيين المسلمين وغير المسلمين ولا سيّما البريطانيين من أصل عربي؛ لأن (كيلروي سيلك) لم يهن العرب المسلمين وحدهم بهجومه العنصري، بل إنه أهان المؤسسة التي يعمل فيها (BBC)، المعروفة بموضوعيّتها ومهنيّتها التي حازت على شهرة عالميّة بسبب ذلك.

ومما يثير الانتباه والعجب، أن البابا بينيديكت السادس عشر للفاتيكان أعاد وكرر هذه الصورة المشوّهة عن الإسلام، صورة القرون الوسطى في هجومه خفيف الظل ضد الإسلام: الذي جاء في محاضرته الدينية في ١٢ أيلول ٢٠٠٦، للعاملين والطلاب في جامعة ريجينسبرُغ، حيث درس علم اللاهوت في السبعينيات (١٩٧٠–١٩٨٠)، وباستخدام كلمات (الجهاد) و(الحرب المقدّسة)، نقل البابا انتقادات النبي محمد عن طريق إمبراطور القرن الرابع عشر البيزنطي النصراني (مانويل الثاني) القائل في أثناء محاورة مع عالم فارسي: «أرني ما الجديد الذي جاء به محمّد، فلا تجد إلاّ الشرّ وغير الإنسانية، كأوامره لنشر العقيدة التي يدعو لها بحدّ السيف»، ثم يستطرد بينيديكت قائلاً: «ويستمر الإمبراطور يشرح بالتفصيل كيف أن نشر العقيدة عبر العنف هو شيء غير معقول»، ثم أضاف البابا قائلاً: «العنف متعارضٌ مع طبيعة الربّ وطبيعة الروح».

وبعد هذا كله، فإن أحد أجداد بنيديكت (أوروبان الثاني) كان هو الذي دعا النصارى للجهاد (الحرب المقدسة) ضد الإسلام. ثم إن النصارى المولودين – ثانية (كما يُسمّون) هم الذين كانوا في مقدمة التأييد لغزو العراق، كذلك احتلال إسرائيل لأراضي فلسطين، والإعادة الكليّة لخريطة الشرق الأوسط – والكوارث التي كان ضحيتها الآلاف العديدة من المسلمين. وبالمناسبة، فإن الإمبراطور مانويل الثاني (١٣٥٠–١٤٢٥)، كان الإمبراطور الثاني قبل الإمبراطور الأخير للإمبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطيّة). وعندما كان صبياً أسرهُ الأتراك، وقد كان إرثه ومملكته في خطر من قبل الإمبراطورية العثمانية وكانت عاصمته تحت الحصار.

وبعد (٣٨) عاماً من موته، سقطت القسطنطينية، عاصمة الإمبراطورية البيزنطية للعثمانيين بقيادة السلطان محمدّ الثاني "محمد الفاتح"، كذلك في العصر الحديث تكلم البابا بينيديكت علناً أن النصرانية هي حجر الزاوية لأوروبا وضدّ ضمّ تركية للمجلس الأوروبي (للسوق المشتركة). وقال: إن على تركية أن تلتمس مستقبلها بصحبة الدول الإسلاميّة، لا الاتحاد الأوروبي ذي الجذور النصرانية. وفي تقرير آخر بالـ (جارديان) يُعطي بصيرةً لتفكير الفاتيكان حول الإسلام، جون هوير من الـ (جارديان) كتب من روما أن البابا يعتقد أن الكنيسة يجب أن تتخذ خطاً متشدداً مع الإسلام. ولكن ما يجعل تعليقات البابا من باڤاريا (ألمانية) غير حساسة، هو أن ميونخ والمدن المحيطة بها هي مأوى الآلاف من الأتراك، الذين غالباً ما يُعاملون بسوء من قبل الألمان المحليين ويعانون العنصرية بتكرار.

وعكس البابا السابق (جون بول)، فإن (الكاردينال راتزينجر) هذا الذي أصبح يسمى بالبابا بينيديكت السادس عشر بعد انتخابه، لا يوافق على صلوات مشتركة مع المسلمين. وهو أيضاً متشكك بفائدة حوار الأديان. ماركو بوليتي، خبير الفاتيكان في الصحيفة الإيطالية اليومية (ريبوبليكا) قال: «بالتأكيد، فإنه (البابا) يغلق الباب أمام فكرة كانت عزيزة جداً للبابا جون بول الثاني؛ وهي فكرة أن النصارى واليهود والمسلمين جميعاً ربهم

واحد، ويجب عليهم جميعاً الصلاة لهذا الرب الواحد». وبلا عجب فإن هجوم البابا بينيديكت على الإسلام أدى إلى استنكار شديد في العالم الإسلامي. لذا فإن منظمة المؤتمر الإسلامي بـ٥٧ دولة عضو ذمت تصريح البابا وأبدت أملاً «بأن هذه التعليقات العجيبة ليست جزءاً من حملة جديدة ضد الإسلام بقيادة الفاتيكان، ولا سيّما بعد عقود من الحوار الذي قرّب العلماء في العالم الإسلامي مع وجهات نظر علماء الفاتيكان».

بعد كارثة مركز التجارة العالميّ (في ١١ أيلول ٢٠٠١)، كتب (اليكساندر كوكبرن) في ٧ أيلول ٢٠٠٢، عما يسمى الآن بـ (حملة بوش الصليبية) على الإرهاب التي صارت معروفة بـ (الحملة الصليبية العاشرة) التي أدت للغزو ولاحتلال أفغانستان والعراق. فإن في ٩ حزيران ٢٠٠٧، قام الرئيس الأمريكي بوش بزيارة البابا بينيديكت السادس عشر في الفاتيكان، (كلا الرجلين كاثوليكي روماني العقيدة!) ربما لتعزيز ما يعرف اليوم بالحملة الصليبية العاشرة.

لذلك يبدو أن أوروبا احتاجت أكثر من ١٢ قرناً حتى تسمّي المسلمين باسمهم الصحيح (المسلمون)، وأن تعدّهم وحدانيين يعبدون إلهاً واحداً (لا وثنيين، كفّار، مشركين)، أو تسميتهم بأصلهم الإثني، مثل: العرب، والترك، والشرقيين. والآن الغرب له قدرة التمييز لتسمية محمد نبي الإسلام (وهو ليس إلهاً يعبد، ولا مهرطقاً مبتدعاً) وأن أتباعه هم المسلمون (وليس المحمديين؛ لأنهم لا يعبدون محمداً بل الله الواحد)؛ وهم يستطيعون النطق باسمه محمد (لا ماهاوند، ولا ماهون مثلاً) وتسمية الأشياء والناس بأسمائهم الصحيحة هو بذاته تقدّم تاريخي عظيم.

في الواقع، أنّ النبيّ محمد ﷺ ومجيء الإسلام بدأ يظهر إيجابياً في كتب الدراسات الأكاديمية والكلاسيكية التي تعدّد أعظم الرجال المؤثرين وأهم الأحداث التي صاغت تاريخ البشرية، مثلاً:

١. **مجيء الإسلام**، صفحة ١٢٤–١٤٠ في:

١٠٠ حدث عظيم غيّر العالم منذ بابل حتى عصر الفضاء، لمؤلفه: جون كانينغ، نشرته أو.هام بوكس المحدودة، لندن، ١٩٦٥.

٢. **محمد** (٥٧٠–٦٣٢)، صفحة ١٨٥–١٩١ في:

١٠٠ من عظماء الملوك والملكات وقادة العالم، لمؤلفه: جون كانينغ، نشرته أودهام بوكس المحدودة، لندن، ١٩٦٧.

٣. رقم ١: **محمد** ٥٧٠–٦٣٢، صفحة ٣٣–٤٠ في:

المئة (١٠٠) شخصية الأكثر تأثيراً في التاريخ، لمؤلفه: مايكل هارت، شركة هارت للنشر، نيويورك، ١٩٧٨.

وهناك العديد من الكتب المؤلفة في القرن العشرين ومطلع القرن الواحد والعشرين عن شخص النبي محمد ﷺ.

إن إعادة تكرار الماضي المظلم السلبي في قرننا الحاضر الحادي والعشرين قد يكون طريقاً خطراً جداً فالتاريخ دائرة، ومن الأفضل دوماً إعادة تكرير الجوانب المشرقة الإيجابية من التاريخ الماضي في حاضرنا وتطبيقها في مستقبلنا. ثم إن الخوف من الإسلام يجب أن يتوقف، ومصطلح (إسلام – فوبيا) يجب أن يصبح من الكلمات المنقرضة باللغة الإنجليزية. إن نصف الكرة الغربيّ هو حقل خصب لفهم الإسلام على نحو أفضل؛ لأن الإسلام هو دين الله منذ خلق آدم؛ وهو المعتقد الحق الواحد من الله الحقّ الواحد، وهو منهاج حياة كامل قرره الصانع لخلقه والإرهاب يجب تمييزه وعزله عن الإسلام والديانات الأخرى (والحقّ أن هناك متطرفين نصارى، ويهوداً، وهندوس أكثر كثيراً من المتطرّفين المسلمين). إضافة إلى ذلك، فإن الذين اعتنقوا الإسلام شعروا بالفارق مباشرة، وصاروا أكثر سلاماً مع أنفسهم ومع الآخرين؛ ثم إنهم صاروا مؤمنين أفضل من ذي قبل لأنهم أصبحوا أقرب إلى موسى وأقرب إلى عيسى من ذي قبل، وبمعرفة أن الله هو الواحد الأحد، وكل شيء آخر غيره هو من مخلوقته.

وعندما تحوّل الغزاة التتار إلى الإسلام، صاروا أكثر إنتاجية ونفعاً؛ وقد استُبدلت همجيتهم وتدميرهم لحضارات ببناء حضارة وتوحيد ثقافاتها كما في سلالة المغول في شبه القارّة الهندية.

لمّا كان الإسلام هو دين الله الوحيد الحقّ (الصحيح)؛ لذا فليس الإسلام مُلكاً لأحد. وبالرغم من أنّ العرب والمماليك والمغاربة والأتراك حملوا رسالة الإسلام للعالم، لكن الحقيقة تبقى: أن الإسلام ليس حكراً لأحد. بل إنّ الإسلام جاء للبشرية جمعاء، والكلّ معنيٌّ ومُلزم بنشر رسالة الله لربوع العالم.

وما زالت هناك تقارير حول اعتناق نابليون بونابرت للإسلام بعد الحملة الفرنسية عام ١٧٩٨م، عندما أصبح قريباً من علماء الإسلام وفي احتكاك مباشر مع المجتمع المسلم. فقد قيل: إن نابوليون بونابرت قال في كريستيان جيرفيل، بونابرت والإسلام طبعة بيدون، باريس، فرنسا ١٩١٤ صفحة ١٠٥، ١٢٥:

«أرجو أن يكون الوقت غير بعيد عندما أستطيع أن أوحد جميع الحكماء والرجال المتعلمين من كل الدول وأقيم نظاماً موحداً مبنياً على مبادئ القرآن التي هي وحدها الصحيحة الحقة وهي وحدها الكفيلة بقيادة البشرية للسعادة[٢]».

ولكن نابوليون ارتحل من مصر (تاركاً وراءه جيشه) قبل أن يكتمل إيمانه تماماً وقبل أن يتجسّد معتقده على نحو مادي محسوس.

إن تاريخ الهجرة الحديثة أو الرحيل الجماعي للمسلمين من بلادهم إلى نصف الكرة الغربي، ولا سيّما إلى المملكة المتحدة (بريطانيا وإيرلندة الشمالية) والولايات المتحدة الأمريكية، أدت إلى حوار أفضل وإلى فهم للإسلام أحسن. والحقيقة إن إحدى مجلات لندن الأسبوعية (تايم آوت) في عددها بتاريخ ٦-١٢ حزيران ٢٠٠٧، نشرت مقالاً مثيراً بعنوان (**هل مستقبل لندن إسلامي؟**) وبناءً على مقابلة مع قطّاعات مختلفة من الأهالي اللندنيين)، وذكروا الفوائد الكثيرة التي يستطيع الإسلام جلبها لمدينة لندن، فمثلاً إن منع الكحول يؤدي إلى تجنب ٢٢٠٠٠ وفاة مع توفير ٧,٣ بليون إسترليني من جرائم الكحول كل سنة.

انتقد سمو الأمير شارلس، أمير ويلز وولي العهد في المملكة المتحدة، وراعي مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية، بشدة الخوف من الإسلام (إسلام — فوبيا) وألقى ثلاث محاضرات مُلهمة عن الإسلام، بعنوان:

١. (**الإسلام والغرب**) ألقاها في مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية في ٢٧ تشرين الأول ١٩٩٣.

٢. (**تحسّس القدسية: بناء جسور بين الإسلام والغرب**) ألقاها في ويلتون بارك، معهد إنجلترا المحترم لدراسة الشؤون العالمية، في ١٣ كانون أول ١٩٩٦.

٣. (**وحدة العقيدة**) ألقاها في جامعة الأزهر في مصر في ٢١ آذار ٢٠٠٦.

وفي محاضرته في أكسفورد ابتدأ الأمير شارلس بقوله: إنه يتكلم من قلبه (واستشهد بالمثل العربي: ما يخرج من اللسان لا يتجاوز الآذان، وما يخرج من القلب يستقر في الجَنان — أي القلب)، ثم قال فيها: (هناك أيضاً جهلٌ مُدقع حول ما تدين به ثقافتنا وحضارتنا للعالم الإسلامي. إنّه فشلٌ ناشئٌ، فيما أعتقد، من سترة السجّان المساجين (لتقييده ومنعه من الحركة) التي كبّلت التاريخ الذي ورثناه. إنّ عالم الإسلام في القرون الوسطى، الممتد من آسيا الوسطى حتى سواحل الأطلسي، كان عالماً يعجّ ويترعرع فيه العلماء ورجال الفكر.

إنّ إسهامات إسبانية المسلمة (الأندلس) في المحافظة على العلوم لاسيما الكلاسيكية في أثناء عصور الظلام (الأوروبية)، وفي تنبيتها أول أزهار النهضة (الأوروبية)، قد أُدركت وعُرف قدرُها. لقد غذّى الإسلامُ طلبَ العلم

وحافظ عليه. كما ورد في المقولة التقليدية: "مداد العلماء أفضل من دماء الشهداء". لقد كانت قرطبة في القرن العاشر أكثر مدن أوروبا حضارةً. ويقال: إنّ مكتبة أميرها كانت تحوي ٤٠٠٠٠٠ كتاباً؛ أكثر مما حوته جميع مكتبات أوروبا من الكتب مجتمعةً.

وكان ذلك مُمكناً لأنّ العالم الإسلامي أخذ من الصين مهارة صناعة الورق ووظّفها قبل أوروبا غير المسلمة كلها بـ ٤٠٠ سنة. إنّ كثيراً من العلوم والمزايا التي تتبجح بها أوروبا الحديثة قد جاءت لها من إسبانية المسلمة. فالدبلوماسية، والتجارة الحُرّة، والحدود المفتوحة، وطرائق البحث الأكاديمي (العلمي)، وعلوم الجنس البشري، والأتيكيت (الآداب)، وعروض الأزياء، ومختلف فروع الطبّ، والمستشفيات، كلها جاءت من هذه المدينة العظيمة: مدينة المُدُن.

كان الإسلام في العصور الوسطى دين التسامح الأعظم في زمانه، مما سمح لليهود والنصارى حريّة ممارسة معتقداتهم الدينية، وكان بذلك نموذجاً فريداً في الغرب ولعدة قرون، ولم يحذو حذوه أحد (من أوروبا)، يا للأسف.

إنّ الإسلام هو جزءٌ من ماضينا وحاضرنا، وفي كل مناحي الحياة. فهو الذي ساعد على قيام أوروبا الحديثة إنّه جزء لا يتجزأ من تراثنا – نحن – الخاص بنا.

وأكثر من ذلك أنّ الإسلام يستطيع اليوم تعليمنا طريقة الفهم والعيش في العالم، لأن النصرانية نفسها قد خسرت، فهي مفتقرة إلى ذلك. إنّ الحفاظ على النظرة المتوازنة للكون هي من صميم الإسلام، ولكن الغرب قد فقَدَ هذه النظرة المتوازنة للعالم تدريجياً مع كوبيرنيكوس وديسكارت ومجيء الثورة العلمية. فما عادت الفلسفة الشاملة للطبيعة تكوّن جزءاً من معتقداتنا اليومية. هذا التحسس المهم للنظرة الشمولية الموحّدة وللائتمان على الجوانب المقدسة والروحية للعالم من حولنا هو بالتأكيد شيء جوهري يجب علينا تعلمه ثانيةً من الإسلام. كلّ منا يجب عليه أن يفهم أهمية التوفيق، والتفكير – أي التدبّر (ذكرها حرفياً من العربية) هي الكلمة، كما أعتقد – لكي نفتح عقولنا وقلوبنا (المتغلقة) لبعضنا بعضاً. وأنا على يقين من أنّ عالمي الإسلام والغرب يملكان كثيراً ليتعلّم احدهما من الآخر. فكما أنّ مهندس النفط في الخليج قد يكون أوروبياً، كذلك جرّاح زراعة القلوب في بريطانيا قد يكون مصرياً (إشارة إلى الجرّاح المصري مجدي يعقوب).

وفي محاضرته (تحسّس القدسية: بناء جسور بين الإسلام والغرب) التي ألقاها في ويلتون بارك قال: (إنّ المادية الحديثة، في رأيي المتواضع، غير متوازنة وذات أضرار كبيرة في عواقبها الطويلة الأمد. لقد صار الدين والعلم منفصلين، إلى درجة أن وليم وردزورث قال: «إنّ قليلاً مما نراه في الطبيعة صار يمتّ لنا بصلة». لقد حاول العلم سلب العالم الطبيعي من الله، مما أدّى إلى تجزئة الكون وتنحية وعزل كل ما هو مقدس في حُجيرة ثانوية منفردة في فهمنا، ومنفصلة عن حياتنا ووجودنا العمليّ اليومي.

وفي رأيي، أننا نحتاج إلى نظرة أكثر شمولية في عالمنا المعاصر. لقد أدّى العلمُ خدمة لا تُقدّر ليُرينا عالماً شديد التعقيد أكثر مما تصورناه. لكنه في نظرته المادية الحديثة والأحادية الجانب، لا يستطيع تفسير كلّ شيء. فليس الله مجرد عالم رياضيات نيوتنيّ أعظم، ولا هو صانع الساعات الميكانيكي وحسب...وبازدياد انفصال العلم والتقنيات عن الجوانب الخُلُقية والأدبية والمقدسة، كذلك صارت عواقب هذا الانفصال أكثر عتامة ورعباً – كما نراه مثلاً في التلاعب بالجينات...

بعض العلماء بدأ يدرك ببطء تعقيد الروعة المستلهمة وسرّ هذا الكون. ولكن تبقى هناك حاجة إلى إعادة استكشاف الجسر بين ما أدركته معتقدات العالم العظيمة حول هذين العالمين: الداخلي والخارجي، أي من لُحمته فيزيائياً مع طبيعتنا الروحيّة. ذلك الجسر هو التعبير عن إنسانيّتنا.

والنظرة الغربية هذه مُختلقة، مثلاً، عن نظرة ربّ المهن المسلم أو الفنان، الذي لا يعنيه حب الظهور من جل الظهور، ولا التطور للإبداع المجرد، لكنه يظهره بقناعة حبّ إخضاع صنعته الإنسانية لله. وهذه النظرة وضّح، على ما أعتقد، عبارة القرآن التي لا تنسى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٥].

إنّ إعادة اكتشاف هذه النظرة الشمولية المتداخلة لما هو مقدس، تستطيع أيضاً أن تساعدنا في حقول وفعاليات العملية المهمة:

١. في الطبّ، بالرغم مما يقوله بعض العلماء، فإنّ تمزّق العلاقة بين الدين والعلم، بين العالم المادي وبين تحسس المقدس، غالباً ما أدى إلى طريقة التقوقع في العلاج الصحي، وإلى فشله في فهم شمولية وجلاء الخفيّ في عملية الشفاء. فالمستشفيات يجب أن تُصوّر، بل وتُصمم قبل كل شيء لتظهر شمولية العلاج إذا كانت تريد أن تساعد المريض في عملية النقاهة على أكمل وجه..

٢. إنّ بيئتنا قد عانت ما هو أسوأ من الكوابيس، جزئياً بسبب النظرة الأحادية للتطور الاقتصادي، الذي ما زال حتى عصر حديث يفشل، ليأخذ في حسبانه العلاقة المتداخلة بين الخلق. إنّ القليل من التفكير قد أُعطيَ لأهمية إيجاد توازن مستقر ضمن صميم الطبيعة وفهم الضرورة الحيوية لوضع واحترام الحدود. وهذا، مثلاً، يعلل لماذا أنّ حماية البيئة هو شأن حديث نسبياً؛ ولماذا الزراعة العضوية والمستمرة للحقول ضرورية جداً إذا أردنا استخدام الأرض بطريقة تحمي قدرتها لتغذية أجيال المستقبل.

٣. وحقلٌ آخر كان له عواقب درامية وخيمة عليه لانفصال المادة عن الروحانية، وهو حقل فن العمارة. إنّي أعتقد أنّ لهذا الانفصال وقع في صميم فشل كثير من فن العمارة الحديثة في فهم الميزة الروحية الحقيقية والقواعد التقليدية التي تظهر انسجام الكون، الذي جاء منه البناء الذي ترتاح له النفوس وتحبّ أن تعيش في أكنافه. لهذا السبب فإنّي كوّنتُ (معهدي في فن العمارة). كتب تيتوس بوخارد: «إنها طبيعة الفنّ أن تستبشر بالروح، ولكن ليس كلّ فنّ يمتلك أفقاً روحياً». ونحن نرى الروحانية في فن العمارة النصرانية التقليدية. ثم إنها تدهشنا بالطراز الهندسي المتجانس والزخارف العربية للفن الإسلامي وفن العمارة، التي تمثل أقصى مظاهر الوحدانية الإلهية، وهي يدورها رسالة مركزية في القرآن. فالنبيّ محمّد نفسه كما ورد عنه قال: «إنّ الله جميلٌ يحبّ الجمال». انظر للتخطيط المدني. فالمؤرخ العظيم ابن خلدون، فهمَ العلاقة الوثيقة بين حياة المدينة والسكينة الروحية على أنها أساس جوهري للحضارة. فهلا نستطيع الرجوع ثانية إلى هذا الانسجام في مدننا؟ وعندما تفسد الحضارات، تفسد فنوننا أيضاً. هكذا كتب ابن خلدون ذلك ايضاً.

هناك حاجة كامنة إلى إقامة روابط جديدة ومفيدة بين الحضارة الإسلامية والغرب. ربما نستطيع مثلاً أنْ نبدأ بتوظيف كثير من المُدرّسين (المربّين) المسلمين في المدارس البريطانية، أو نقوم بتبادل المُدرّسين. في كل مكان في العالم، على ما يبدو، يودّ الناس تعلّم الإنجليزية. ولكننا في الغرب، نحتاج بدورنا إلى المُدرّسين المسلمين لكي يعلمونا ثانيةً كيف نستطيع التعلّم بقلوبنا كما نتعلّم برؤوسنا).

[on-line: http://www.fco.gov.uk ; Prince Charles Speech;
www.princeofwales.gov.uk/speechesandarticles/a_speech_by_hrh_the_prince_of_wales_titled_islam_and_the_wes_425873846.html]

وكثيرٌ من المسلمين يعتقدون أنه إذا كانت بريطانيا أو امريكا حريصة على قيادة الشرق الأوسط والعالم الإسلامي بأسره بكل موارده، فلهم أن يتبنّوا الإسلام بصدق ويطبّقوه في حياتهم. ولذلك سيُرحّب بقيادتهم العالم الإسلامي كله، ومستقبل العالم سيزدهر للجميع، بالتشارك والتكافل، لا عن طريق ديمقراطيات زائفة، ومعايير

مزدوجة، والسيطرة على الأسواق، واحتلال العراق وأفغانستان وفلسطين: الذي ما جلب إلاّ الدمار والضحايا البشرية لكل الأطراف.

وكأن قاعدة الاستعمار القديمة: «فرّقْ تسُد» قد استعيض عنها بالسياسة الجديدة: «الفوضى الخلاّقة».

إذا تبنّت بريطانيا وأوروبا عموماً الإسلام أو لو تبنّته أمريكا الآن وبصدق، فإنهم يستطيعون قيادة العالم بوسطية الإسلام الأصيلة قاضين بذلك على التطرّف العنيف: مما سيوصل العالم إلى أعظم سلام واتحاد وازدهار.

ولعل الوقت قد حان للدراسة المستفيضة للقرآن الكريم: في ترجمة إنجليزية موثقة مع الأصل العربي: (أي طبعة مجمع الملك فهد) مع صحيح البخاري ومسلم (المجلدّان اللذان يحويان الأحاديث الصحيحة لأقوال وسيرة النبي محمد ﷺ) كمراجع تدريسيّه مُقررة في أقسام القانون، والفلسفة، واللاهوت والأديان المقارنة في جامعات لندن وأكسفورد وكامبردج: لفهم الإسلام مباشرةً من منبعه الأصيل (دون طرف دخيل).

لقد نُقلَ عن العالم المصري (محمد عبده) في أوائل القرن العشرين أنه قال: (أوروبا «ويعني الغرب» إسلامٌ ولا مسلمين، لكن الشرق مسلمون ولا إسلام) مشيراً إلى العدل والمساواة والقيم الإنسانية العظيمة الأخرى السائدة الآن في الغرب (التي تماثل الإسلام في شكله الأصيل)، بينما كان يدمّ الجور والفساد السائد في الشرق آنذاك.

وبعد ذلك كله، ولعله من المثير للذكر هنالك أن ننقل ثلاثة أقوال للسير جورج برناردشو[٢] في الإسلام الحقيقي المجلد الأول عدد ٨، ١٩٣٦:

- «لقد كنت دوماً أكنُّ لدين محمد كل تقدير بسبب حيويته المدهشة. فهو الدين الوحيد الذي يبدو لي أنه يمتلك قدرة اتساع لاستيعاب أطوار الحياة المتغيّرة مما يجعله جذاباً لكلّ الأعمار. لقد درستُ إنه إنسانٌ رائع (عن محمد) وفي رأيي هو بعيدٌ كل البعد عن كونه عدو المسيح (أعداء الإسلام يسمّون محمداً بالمسيح الدجّال حاشا نبي الهدى عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم)، بل الواجب تسميته منقذ البشرية»
- «أنا أؤمن أنه لو تزعم رجلٌ مثله (محمد) العالم الحديث فإنه سينجح في حلّ مشكلاته على نحو يجلب ما نحتاجه من السلام والسعادة، إنني أتنبأ أن دين محمد سيكون مقبولاً من أوروبا الغد كما هي بداية قبوله في أوروبا اليوم».
- «إن كان هناك دينٌ له إمكانية حكم إنجلترا؛ لا بل أوروبا في أثناء مئة السنة القادمة، فلعلّه الإسلام».

التراث الإسلاميّ وتأثيره في أوروبا:[١] [٢] [١٥] [٥ ب]

تركت الحملات الصليبية آثاراً عميقة لكنها محدودة على العالم الإسلاميّ، بحيث كانت المصطلحات المتعلقة بـ«الفرنجة» تتكافأ مع «الصليبيين»، وينُظرُ إليها بازدراء. ورأى المسلمون فيها نصارى أوروبا كغزاة للسلب والنهب والطمع، الذين يجب إخراجُهم بأي ثمنٍ ممكن: إنّ فكرة البابا أنها حربٌ للتحرير قد أدّت إلى مثل ما تؤدي إليه كلّ الحروب، نزاعات وحشية بغيضة طويلة المدى، ازدادت سوءاً بالكراهية الدينية والجشع وجنون المثالية. حتى الآن يرى العرب والمسلمون التدخل الغربي في الشرق الأوسط (حرباً صليبية): لقد عَدَّ المسلمون الحملات الصليبية انقضاضاً وحشيّاً همجياً قاسياً (لا مسوّغ له) من قبل نصارى أوروبا.

والعكس من ذلك، ففي أثناء الحملات الصليبية لم يمنع المسلمون النصارى من الأراضي المقدسة أبداً بل دعوهم للمجيء على نحوٍ مُسالم للزيارة والحجّ.

وبالفعل فقد جاؤوا ليس إلى فلسطين في الشرق فحسب، بل إلى إسبانية في الجنوب، حيث فتح لهم المسلمون الأبواب إلى عالم المعارف العلميّة والحضارة والمدنية.

وهنا قام المسلمون بحفظ التراث والثقافة الماديّه وأفضل ما في الحضارة اليونانية – الرومانية من الضياع ولم يروا أن هناك تناقضاً بين عقيدتهم الدينية والتراث المادىّ الإغريقي – الرومانيّ. وفي الواقع فإن الإسلام قد استحثّ أتباعه على طلب العلم، قال النبيّ محمد ﷺ: «**طلبُ العلم فريضةٌ على كلّ مسلم ومسلمة**». لذلك كان هذا الاحتكاك (مع المسلمين) هو تجربة لفتح عيون الغربيين.

ولم يأت الاحتكاك بالشرق المسلم بالثراء المادىّ من البضائع فحسب، ولكنه جلب ثروة فكرية جديدة. إن احتكاك الغرب بالشرق هذا كان قد استمر بما فيه الكفاية لإخراج الغرب من عُزلته الحضارية والعودة للاتصال بالحضارة القديمة التي كانت قد استمرت بوجه أو بآخر في الشرق. وفي المدة تلك من الزمان، استُبدل السّلب والنهب بالتجارة، والحملات العسكرية بزيارات الغربيين إلى مراكز العلم في الشرق الإسلامي (الذي يشمل إسبانية بصورة رئيسة). إنه هنا بين ظهرانيّ المسلمين حيث قام الغربيون بإعادة اكتشاف تراثهم الأوروبي الضائع (ولا سيّما التراث (الوثني) القديم لليونان والرومان). وبعكس الأثر السلبي للبابويه في أوروبا فإن الشرق الإسلامي قد أثر تأثيراً إيجابياً في أوروبا، ونتج عن ذلك ثلاث ظواهر أساسية هي:

أ. التفكير العلمي الحرّ والحركة الفكرية السكولاستية
ب. الإصلاحات البروتستانتية
ج. عصر النهضة الأوروبية

أ. التفكير العلمي الحرّ والحركة الفكرية السكولاستية:

في نحو منتصف القرن الثاني عشر، كان هناك كما يبدو روحٌ جديدة من الطاقات المتدفقة تجري في المجتمع الأوروبي. وكانت هذه مرحلةً من النمو السّريع في المعارف الأوروبية (وهذه الروح الجديدة من التفكير الحر أثارت مخاوف الكنيسة إلى حدٍ ما). وسرعان ما أدّى هذا التعطش للمعرفة إلى دفع بعض المعلمين إلى التعمق أكثر في التقصّي الفكري والتساؤل العقلاني. ولما أعاد مسلمو الشرق كتب أرسطو القديمة إلى الظهور في أوروبا، بدأ العلماء والباحثون في التجمع والالتقاء في (جامعات) جديدة متنامية ظهرت إلى حيز الوجود من المدارس الكنسية الكاتدرائية. هنا أصبحت دارسة المنطق والعلوم دراسة دقيقة صارمة. كان العلماء أمثال توماس الإكويني يجتمعون في هذه الجامعات لتعرُّف الأعمال الكاملة لكتب أرسطو وأفلاطون، وغير ذلك من المؤلفات (الوثنيّة) ما قبل ظهور المسيح (عليه السلام). وبالتدريج بدأت بصيرتهم في الحياة تتوسع وإدراكهم يتوسع وذلك عبر الدراسة الصارمة لعلوم المنطق والرياضيات والقانون والطبّ والفلك. كل هذا انتظم أخيراً ليصبح حركةً فكرية تعرف بـ (السكولاستية) أي العقلانية.

إن علماء أوروبا في العصور الوسطى المتأثرين على نحو مباشر أو غير مباشر بمؤلفات العلماء المسلمين عدد كبير قد يشكّلون قائمة لا تكاد تنتهي. وعلى سبيل المثال لا الحصر فهذه بعض الأسماء المشهورة:

١. أديلارد من باث.
٢. بيتر أبيلارد.
٣. روبرت غروسيتست.
٤. الكساندر من هيلز.
٥. ألبيرتوس ماجنس.
٦. القديس توماس الأكويني.
٧. القديس بونا فينتورا.
٨. دونس سكوتوس.
٩. روجير بيكون.
١٠. مارسيليوس من بادوا.
١١. ريشارد من ميدلتون.
١٢. نيكولاس أوريزم
١٣. جوانيس بوريدانوس.
١٤. سايغر من برابانت.
١٥. جون بيكام.
١٦. هنري من غانت
١٧. وليم من أوكام.
١٨. والتر برلي.
١٩. وليام من أوفيرن.
٢٠. دانتي الغيري.
٢١. بليز باسكال.

وعديدٌ آخرون. ويذكر أديلارد من باث الإنجليزيّ المشهور الذي عاش في بداية القرن الثاني عشر الميلادي، يذكر في كثير من الأحيان فضل العرب عليه، فقال: (لقد تعلمت على أيدي العلماء العرب [كما يقول هو]... لقد علّمني أساتذتي العرب – أن أُقاد بالسببية [العقل] وحده لاغير، بينما علموكم اتّباع قيود صورة الاستعباد [الأعمى] للسلطة القديمة [أي سلطة الكنيسة]). [تينا ستيفل الثورة الفكرية في أوروبا القرن الثاني عشر. مطبعة سانت مارتن نيويورك. صفحة ٨٠، ٧١].

لقد قيل: إن استقلالية فرسان الهيكل (انظر أدناه) جلبوا معهم بضاعة أخرى نادرة الوجود في أوروبا العصور الوسطى – **حرية الفكر**: إنهم كانوا وسيلة للغرب في جلب تقنيّات العرب المتقدمة في المسح (الجغرافي والأرضي)، والطبّ، والعمارة، وفن البناء. أن تفتّح الذهن لفرسان الهيكل كان فريداً بحق في المجتمع الأوروبي مدة (١٥٠) سنة أخرى حتى بداية عصر النهضة في أواسط القرن الرابع عشر. وفي (ما وراء البحر) كما كانت تسمى فلسطين، فإنهم (فرسان الهيكل) تبنوا عاداتٍ كثيرة من أعدائهم السابقين (العرب المسلمين). وبعض قادة الفرسان تكلموا العربية بطلاقة (غالباً ما تعلموها في أثناء مدة أسرهم) والعديد منهم استوظفوا (سكرتارية) أمناء عرب. ونتيجة لذلك فقد نهلوا من معارف هذه الثقافة الأجنبية، حيث معارفهم (معارف المسلمين العرب) في شتى الحقول كانت متقدمة جداً على مناوئيهم النصارى.

إن مراكز العرب التعليمية آنذاك كانت مستودعات ممتلئة بالحكمة، ومكتباتهم عامرة بالكثير من المخطوطات اليونانية (الإغريقية) والمصرية القديمة، التي افتقدها الغرب: المراجع الطبية كمجموعة جالينوس الكاملة، والأقوال المأثورة لأبقراط، وكتب الفلك، والفيزياء، والرياضيات. وهذه النفائس كانت قد 'نمحت في العالم النصراني في أثناء تدمير الكنيسة المتطرف الأعمى لكتب الهرطقة. وكان نمو قوة فرسان الهيكل واستقلالهم الفعلي قد سمح بفحص مصادر التعليم الجديدة هذه دون الخوف الدائم من التدخل الكنسي الديني دون تهديد الدولة. وهذه الرغبة لقبول الأفكار الجديدة والمفاهيم الحديثة (آنذاك) جلبت فوائد عظيمة (للغرب)[٩].

ب. الإصلاحات البروتستانتية:[٥٠]

(أي إصلاحات المعترضين على الكنيسة الذين هددت الكنيسة البابوية بقتلهم بتهمة الهرطقة والابتداع الديني في القرنين الرابع عشر والخامس عشر).

إن احتكاك الغرب بالمسلمين قد بيّن لهم صدق وبساطة الرسالة الإسلامية، الداعية إلى التمسك بكتاب الله سبحانه وتعالى (القرآن الكريم) والإيمان بوحدانيته وعدم الشرك به أو عبادة الأصنام (أيد البروتستانتيون الالتزام الأكثر صرامة بالكتاب المقدس، وعدُّوا عبادة السيدة مريم العذراء والقديسين نوعاً من الشرك)، وإن الناس سواسية أمام الله سبحانه تعالى؛ وحرم الإسلام الرِّبا والضرائب الفاحشة التي تستعبد الناس، وكذلك فإن الإسلام عدَّ تحرير العبيد و(فك الرقاب) عبادة وتقرباً إلى الله يثاب عليها المسلم، وكل مسلم هو على اتصال مباشر مع الله سبحانه لطلب المغفرة من الذنوب بلا وسيط (أو الحاجة لطلب صكوك الغفران – من الكنيسة كما يفعل الكاثوليك).

وكل مسلم له الحق في استعمال القرآن الكريم على نحوٍ مباشر (كلام الله سبحانه)، وبلغته العربية. كذلك لا توجد رهبانية أو عزوبة: (امتناع عن الزواج) في الإسلام وهكذا كانت سنوات القرن الثاني عشر الميلادي مُتزامنة مع صحوة بروتستانتية بين الناس، وكان موضوعها الغالب هو إصلاح الفساد في مؤسسة الكنيسة، الذي أدّى بدوره إدانة البابوية والتمرد على الكنيسة وإخراج روما حول أغلاطها العَقَديّة. واتهمت البابوية كل الحركات

الإصلاحية وكل المصلحين بـ الهرطقة ووصفهم بالهراطقة (أي أصحاب البدع والمنشقين عن العقيدة). بعض المصلحين (أمثال كالفن وكذلك لوثر) قد هُدِّد ووُسِم أنه محمد أوروبا!!! ومع هزيمة الأسطول البحري الإسباني (الأرمادا) عام ١٥٨٨ م، بدأ نفوذ الإمبراطورية الإسبانية الكاثوليكية بالهبوط، ونفوذ الإمبراطورية البريطانية البروتستانتية بالصعود.

وإحدى الحركات الأساسية التي تأثرت بالإسلام (التي جاءت من الشرق في أثناء الحروب الصليبية)، كانت: **حركة الـ كاثارز** (كاثارز مفردها كاثار من العربية أطهار، وهي أيضاً مشتقة من كلمة كاثاروس اليونانية بمعنى الطاهر النقي)، وعرفوا أيضاً بالـ ألبيجنسيانز (ألبي جنسيانز) نسبةً لمدينة ألبي جنوب فرنسا حيث كان الكثير منهم هناك (وكذلك في شمال إيطالية وألمانية).

احتوت حركة الكاثارز عناصر دينية مختلفة: فهناك دليل على العلاقة القوية بين حركة الكاثارز وجماعات الصوفية المسلمة، وطائفة القبالا اليهودية. إن كلمة صوفي جاءت من كلمة صفا العربية، وتعني صافياً كالسماء الصافية الزرقاء. وقد صح إن كاثارز القرن الثالث عشر كانوا يرتدون أردية زرقاء، ثم إن الكاثارز الجدد يفضلون هذا اللون أيضاً. وكان الكاثارز على علاقة قريبة بالـ ترابادور (من العربية طرب، ودور أي المغنون المتجوّلون) وهم كتّاب الشعر العاطفي. وكان الرأي أن الكاثارز كانوا يعتقدون أن الله تتجلى قدرته عبر الألوان والأصوات في الطبيعة. وكان الكاثارز يعدّون في نظر المناوئين ثنويين يعتقدون بوجود إلهين اثنين: إله الخير والكمال الذي خلق السموات والأرواح، وإله الشر الذي تنسب إليه الأشياء المادية الدنيوية الزائلة. وكانوا يمجّدون عيسى عليه السلام، بوصفه مخلوقاً عظيماً ولا يعدّونه في منزلة ابن الأب (الرب). كان الكاثارز نموذجاً يقتدى به في تقواهم وإحسانهم وطريقة حياتهم، على نقيض واضح وعلى عكس قساوسة النصارى العاميين؛ بل كان الكاثارز محبوبين جداً في مجتمعاتهم. والحقيقة أنهم كانوا محبوبين يدافع عنهم كل من الطبقة العليا من المجتمع، حتى جيرانهم الكاثوليك: إلى الحد الذي جعل الكثير من الكاثوليك يضحون بحياتهم من أجلهم، ورفضوا تسليمهم إلى الكنيسة عندما هاجمتهم الكنيسة الكاثوليكية من بعد (بحُجّة أنّ الكاثارز دنّسوا الصليب، وانتهكوا الحرمات المقدسة، وأكلوا لحوم البشر، وانغمسوا في اللهو والعربدة، وتبرؤوا من المسيح).

وفي جنوب فرنسا قلعل الكاثارز قد أصبحوا أغلبية السكان. ومع هذا فإن أغلب أتباع الكاثارز ظلوا نصارى طيبين محافظين على التزامهم بالعبادة النصرانية المعتادة. إن وحشية الهجوم الذي استمر (٣٠) عاماً قد شتت مدينة لاڤيدوك مُخلّفاً ما بين ستين ألفاً إلى مئة ألف قتيل. وحين سألوا القائد أرنود ممثل البابا: كيف يستطيع أن يميز بين الكاثوليك وبين الكاثارز، فأجاب: (اقتلوهم جميعاً؛ لأنّ الرّب سوف يعرف أتباعه). ولم يُبقوا على أحد منهم، حتى أبادوا الأطفال[٥٨] إن حملة الثلاثين عاماً على الـ (ألبيجنسيانز) أدت إلى حقبة من القمع والاضطهاد الشنيع استمرت خمس مئة عام، وكانت أسطورة على مدى لم يسبق له مثيل في تاريخ الغرب[٥٩].

ومن الهرطقات الأخرى في ذلك الزمن كانت **هرطقة الفالدينسيين (أو الولدويين)** إلى مؤسسها فالديز أحد أثرياء تجار مدينة ليونز، الذي قام عام ١١٧٥م، بالتخلي عن ثروته ليصبح داعياً متجولاً مبشراً بالإنجيل. كان يقول: إن الكتاب المقدس لا غير يجب أن يكون أساس العقيدة، وإن كل شيء لا إثبات له في الكتاب المقدس يجب أن يرفض، لهذا فإنه كان يشجع على الفقر الحقيقي، والتبشير الشعبي، والتفسير الحرفي للكتب المقدسة، وكان يرفض صكوك الغفران (الذي تمنحها الكنيسة الكاثوليكية)، ومفهوم المطهر (موطنٌ تطهر فيه نفوس الأبرار بعد الموت بعذاب محدود الأجل)، ومفهوم الاستحالة (استحالة خبز القربان وخمره إلى جسد المسيح ودمه). وبالرغم من أنه استطاع استقطاب المؤيدين (الذين يسمونهم – فقراء ليونز)، لكنه جَلَبَ معارضة الأسقف المحلي:

لأنه كان يعظُ الناس (كان الوعظُ مقتصراً على رجال الدين فقط)؛ وأما طلبهم الاعتراف بهم من روما عام ١١٧٩ فقد قوبل بالرفض والحرمان من حقوق عضوية الكنيسة عام ١١٨٤م. (هم والكتارز أيضاً). لكن في القرن الثالث عشر بدأ البابا إنوسنت الثالث بالاهتمام جدياً بالقضاء على هذه الهرطقات (الفالديسيين والكاثارز). في فرنسا أعلنت حملة البيجنسيان الصليبية ضد الكاثارز عام ١٢٠٩، من قبل البابا إنوسنت الثالث، واغتنم هذه الفرصة بارونات (نبلاء) الشمال الفرنسي لغزو الجنوب الفرنسي للاستيلاء على أراضٍ جديدة.

ونتيجة لذلك، في العشرين سنة التي لحقت، أصبحت مُدُن الجنوب الفرنسي والريف مُهملة وثقافتها مُحطّمة وفي عام ١٢٤٣م، سقط آخر معقل للكاثارز في جنوب فرنسا ودُمّر. كان الكاثارز والفالديسيون (الولدويون) ضحايا الحروب الصليبية التي لا ترحم ومحاكم التفتيش التي لا تلين.

فُرسان الهيكل (أو المعبد): ومن سخرية القدر أن كان فُرسان الهيكل أشهر ضحايا محاكم التفتيش البابوية وأحسن مثال على تلاعب محاكم التفتيش للأغراض الشخصية والسياسيّة. لقد أنشئت جماعة فرسان الهيكل عام ١١١٩م، على افتراض أنها سوف تقوم بمهمة حماية طريق الحجّ إلى الأراضي المُقدّسة. وبمرور الزمن أصبح لهؤلاء الرُهبان المحاربين دور أساسي في الحروب الصليبية (أحد المصادر قدّر عدد فُرسان الهيكل الذين قُتلوا في الحروب الصليبية بأكثر من عشرين ألفاً (٢٠,٠٠٠). وقد عُرف عن هؤلاء الفُرسان أنهم مسؤولون أمام البابا مُباشرة وليس أمام أيّ سُلطة محليّة كَنَسيّة. وبعد حين من الزمان أسس هؤلاء الفرسان مكاتب إدارية (دُعيت) هياكل معابد ومُفردُها هيكل أو معبد) في أنحاء العالم النصراني الغربي كافة. ولقد كانوا من المبتكرين دوماً، فقد أوجدوا ما يعدّه الكثير أوّل نظام مصرفي (بنكيّ أو بنكنوتي) في أوروبا، وكان توزّطهم بوصفهم صيارفة أصحاب مصارف هو الذي أدّى في النهاية إلى سُقوطهم.

وفي بداية القرن الرابع عشر، كان ملكُ فرنسا فيليب الرابع غارقاً في الديون لهيكل باريس. والحقيقة أن فرسان الهيكل أصبحوا مُكافأ العصور الوسطى لما يُعد اليوم بنوكا عالميّة. فإن لويس السابع ملك فرنسا استدان من فرسان الهيكل لتموين الحملة الصليبية الثانية، وفي القرن الثالث عشر أعطى الفرسان قروضاً لتنظيم للملوك الآراغون. ومُعدلات فائدتهم ١٠٪ في السنة كانت أقلّ من مُعدلات البنوك الأوروبية ٣٠٪ تحت إشراف المرابين اليهود؛ وكانت التجارة نشيطة والأرباح هائلة. فعندما أسرَ المسلمون (الشرقيّون) الملك لويس التاسع (ملك فرنسا – في المنصورة بمصر بعد غزو الحملة الصليبية الفرنسية لمصر) طالبوا بفدية قدرها ثماني مئة ألف (٨٠٠,٠٠٠) بيزنت (ذهبية) لإطلاق سراحه. وكان فرسان الهيكل هم الذين قدّموا المبلغ كلّه تقريباً لدفع رسوم الفدية لإطلاق سراح الملك من أيدي المسلمين. لذلك، فإنه في القرن الثالث عشر، كانت فرنسا مدينةً لجميع مُقرضي المال المرابين الأوروبيين، ولا سيّما لفرسان الهيكل. ومن ثمّ قام فيليب ملك فرنسا المعروف باسم فيليب الجميل (أو الوسيم) قام بالبداية باستهداف مجموعتين: المرابين اليهود واللّمبارد، وهم التجّار المرابون في شمال إيطالية والذين كانوا أيضاً يشرفون على عدد من مؤسسات البنوك.

وبالرغم من إقراض فيليب كميات هائلة من المال، فمنذ عام ١٢٩١، (السنة التي سقطت بلاد ما وراء البحر (أي فلسطين) نهائياً لجيوش المماليك المسلمين بقيادة قلاوون وابنه) تعرّض اللّمبارديون لاعتقالات عشوائية، ووضع اليد على ممتلكاتهم، وطردوا. ولم يكن اليهود أحسن حالاً منهم. ففي منتصف صيف عام ١٣٠٦ م، قُبيل نحو سنة من قمع فرسان الهيكل، تم اعتقال كل يهودي في البلاد وصودرت جميع أموالهم المنقولة لصالح الدولة وتُركوا بلا مال ثم طُردوا بلا احتفاء من المملكة (من فرنسا).

كذلك فإن ضرائب فرنسا لم تكن كافية، لذا فإنه في حزيران عام ١٣٠٦، قام فيليب بلعبة خطرة تماماً: فخفّض قيمة العُملة الفرنسيّة مقداراً كبيراً يبلغ ثلثي قيمتها الجارية. فانفجرت المملكة في غضب عارم واعمال

شعب في باريس. وفي وقت كان فرسان الهيكل يشتركون مع اليهود واللُمبارديين بمضرّة واحدة – وهي أنهم مكروهون جداً أو معدومو الثقة من عموم الشعب. وفي أغلب المناطق هناك سببٌ وجيه لمثل هذا الشك: فقُرابة ٢٠٠ عام من استقلالهم الحُرّ من الأغلال قد ألقى ظلاله على معنويات فرسان الهيكل: فالقوة غير المكبوحة التي يتمتعون بها والجشع كان له أساس. فالاعتقاد أنّ الاحتلال الأصلي للقدس من قبل الأتراك الملحدين (!)، قد رآه حلّ النصارى باعتبارات إقطاعية ضيّقة: وهي أن الشرقيين (المسلمين) قد اغتصبوا مملكة الربّ المُقدّسة. وعلى جميع النصارى إصلاح هذا الضرر. لذلك كانت الصدمة الكُبرى عندما هُزم العالم النصراني واندحر نهائياً على أيدي سلاطين المماليك والملاحدة (المسلمين!)، الذين استولوا على جميع الأرض المقدّسة. إن الربّ (الله) قد خذل العالم النصراني، ورجالهم المقاتلين أثبتوا عدم كفاءتهم لمهمة الدفاع عن الأرض المُقدّسة. وهذه الصدمة التي استشعرها كلّ العالم النصرانيّ على هذه الهزيمة النكراء قد أدّت إلى إحباط هائل سفي المعنويات. وللتعويض عن هذه الكارثة الروحيّة والماديّة، كانت هناك محاولة ميؤوسة لتوزيع الملامة (اللوم)، وهو البحث عن أحد مسؤول عن هذه الهزيمة الكارثيّة: أي البحث عن كبش فداء. بفقدان الأرض المقدّسة، تحوّل الانتقاد إلى واحد من الخيانة المطلقة، وبيع (الأرض المقدسة) للعرب. وعكس العامّة من الناس، فإن فرسان الهيكل كانوا مُستثنين من ضريبة العُشر (المُسمّاة بضريبة صلاح الدين: وهي ضريبة مُكونةً من عُشر دخل الفرد، فُرضت أولاً عام ١١٨٨، في إنجلترا وفرنسا لدعم الحملات الصليبية ضد صلاح الدين) وضرائب أخرى، ومن قوانين الكنسية والقوانين الدنيوية[٩].

وكان الملك فيليب يعلم أن فرسان الهيكل سيكونون جوزة يصعب كسرها ومشكلة عسيرة أكثر من اليهود ومن اللُمبارديين، فاعتقال الفرسان غير قانوني، لأنهم يقعون تحت سلطة البابا المباشرة. وكانت هناك محاكم التفتيش التي أنشأها البابا جريجوري التاسع عام ١٢٣١، للهدف المُعلن في تقصّي وقمع الهرطقات بأشكالها كافة. فيما يخص الملك فيليب، فإن محاكم التفتيش هذه هي المفتاح والحلّ. وكانت ظاهريّاً الذراع البابويّ الذي عدّ فرسان الهيكل الولاء له، وإن سُلطته عليهم واجب مُلزمٌ الاعتراف به. فأمر الملك فيليب باعتقال فرسان الهيكل تحت ذريعة الاحترام القانوني بادعائه أن طلب الاعتقالات هذه إنما جاء أصلاً من المفتش العام في فرنسا وليام من باريس، النائب المُعترف به للبابا هناك. وفي فجر الجمعة الـ ١٣ (رقم اليوم الذي صارَ منذ ذلك الحين رقماً مشؤوماً غير محظوظ) من تشرين أول ١٣٠٧م، اقتحم وانتهك رجال الملك حُرمة بيوتات ومدارس فرسان الهيكل وقاموا باعتقال كلّ فارس وجدوه هناك[١٠].

وهكذا وجّه الملك فيليب في عام ١٣٠٧، تُهمة الهرطقة للمنظّمة (فرسان الهيكل)، ومن ثمّ اتُهم الفرسان بتُهم أخرى مثل تهمة أنّ المُرشّح للدخول بالرهبنة كان يُطلبُ منه أن يُنكر المسيح وان يبصُق على الصليب، وكذلك تُهمة أنّ الفرسان يعبدون سراً رأساً يُسمى (بافوميت) لربّما تحريفٌ لكلمة مُحمّد أو حتى بوفاتيمه، تحريف للكلمة العربيّة (أبو فاطمة)[١١] وبالرغم من أن الاسم كان موضع جدال، لكن يبدو الآن جليّاً أن الكلمة اشتُقّت من لغة خواصّ الغاربة الإسبان، (بوفهمه)، التي هي نفسها تحريف الكلمة العربية (أبو فهمه)، حرفياً (أبو الحكمة)[١٢]. هذه التهم لم تثبت البتة إلاّ في اعترافات تحت التعذيب على أيدي محاكم التفتيش.

وجهت محاكم التفتيش الفرنسيّة تُهماً رسمية إلى الفرسان. كان هذا ضرورياً لأنه كما ذُكر سابقاً أن فرسان الهيكل كانت لهم حصانةٌ ضدّ نطاق سُلطة الكنائس المحليّة. في عام ١٣١٢ م، قام مجمع فيينا الكنسي بحلّ المنظّمة (أي المحفل). إنّ فرسان الهيكل هو التنظيم الأبّ للماسونية الحديثة بمحافلها) ومنح جميع ممتلكاتهم إلى منظمة مُشابهة أخرى تُسمى الإسبتارية. انتهى الفصل الأخير من قصة فرسان الهيكل عام ١٣١٤م، عندما أُحرق حياً الأستاذ الأعظم لفرسان الهيكل (جاك دي مولي)، وذلك بعد إنكاره لاعترافاته السابقة علناً، وبعد حل منظمة فرسان الهيكل قام التاج الفرنسي بإلغاء وشطب الديون التي في عنقه للفرسان، بالإضافة إلى مصادرة جُلّ ثرواتهم الماليّة.

إنّ الاحتكاك بالشرق الإسلاميّ أشعل ثانيةً مسألة الاهتمام بترجمة الكتاب المقدس من اللغة اللاتينيّة إلى اللغات المحلية، بما فيه المقت والبغض لاحتكار الكنيسة للكتاب المُقدّس باللاتينيّة، ولبيعها صكوك الغفران، ولسياستها في العُزوبة وعدم الزواج (جزءاً من الرهبانيّة).

إنّ الإصلاحات البروتستانتيّة التي تُعرف أيضاً بالثورة البروتستانتية أو (الإصلاحات اللوثرية)، كانت حركة إصلاحيةً في القرن السادس عشر وذلك لإصلاح الكنيسة في أوروبا الغربيّة.

الجذور والعوامل التي سبقت الإصلاح الديني البروتستانتي هي:

- الحركات المُضادة للسلطة الكهنوتية: الكاثارز، الفالديتسيون (الولدويون، الفُلفيّون، والجلانيون).
- بابوية أفنيون (الأسر البابليّ للكنيسة).
- جون وايكليف، وليم تيندبل، وجون هاس (انظر الفصل الثاني).
- الإصلاحات اللوثريّه.
- وجود الخلافة الإسلامية العُثمانية على أرض أوروبا الشرقية وضغوطها (على الكنيسة والسلطة النصرانية الكاثوليكية).

بدأ الإصلاح الدينيّ رسمياً **مارتن لوثر** بأطروحاته الـ (٩٥) ضد ممارسة صكوك الغفران التي تمنحها الكنيسة. في ٣١ تشرين أول عام ١٥١٧م، قيل: إن مارتن لوثر أعلن هذه الأطروحات على باب كنيسة القلعة في وتينبرغ (ألمانية)، التي كانت عادةً تُستعمل موضعاً لإعلانات الهيئة الجامعيّة. وفي تشرين الثاني أرسل أطروحاته هذه إلى مختلف الهيئات الدينيّة في ذلك الوقت. انتهت الإصلاحات بالانقسام وبظهور مؤسسات جديدة.

ومن أهم التعاليم التي ظهرت على نحوٍ مباشر نتيجة الإصلاح الديني البروتستانتي هي أربعة:

- التعاليم اللوثريّة.
- الكنيسة الإصلاحية /الكالفنيّه/ المشيخيّة (بريسباتاريان).
- كنيسة تجديد العماد (أي تعميد البالغين).
- الكنيسة الإنجليزية (الأنجليكانيّة).

إن الحركات الإصلاحيّة التي جاءت من بعد، تعود جذورها في العموم إلى هذه المدارس الأربع الأوليّة للإصلاحات البروتستانتيّه. لكن بعض أكثر المؤرخين تدقيقاً يرى أن بداية الحركة الإصلاحية البروستانتيّه تعود إلى الوراء أكثر، ويرى أن (وايكليف) هو البداية، جان أوجون هاس هو الوسط، ومارتن لوثر هو نهاية الإصلاح البروتستانتي (انظر الفصل الثاني).

إنّ الإصلاح الدينّي كان في بوهيميا قبل ذلك الوقت بمئة عام، كان له تأثيرٌ قوي على المقاطعات المجاورة وعلى لوثر نفسه، حيث كان يُسمّي نفسه هاسياً (نسبةً إلى هاس). إن الاضطرابات في الكنيسة الغربيّة والإمبراطوريّه التي بلغت ذروتها في بابوية أفنيون (١٣٠٨–١٣٧٨م)، والانقسام البابويّ (١٣٧٨–١٤١٦م)، قد أجّجت نار الحروب بين الأمراء، وهيّجت ثورة القرويين، وأثارت قلقاً على مدى واسع حول الفساد في نظام الرُهبان.

ثم إن نظام القوميات الجديد تحدّى وبصورة نسبية عالمية عالم العصور الوسطى.

جاءت أول حلقة في سلسلة حلقات الفوضى ووجهات النظر الجديدة من جون وايكليف في جامعة أكسفورد، ثم من جون هاس في جامعة براغ، أنهت الكنيسة الكاثوليكيّة هذا الخلاف رسمياً في مجمع كونستانس الكنسيّ في الأعوام (١٤١٤–١٤١٨م). ففي اجتماع الكرادلة السرّي أُدين جون هاس الذي نُفّذ فيه حكم الإعدام

(بعد إعطائه عهد الأمان) كما أحرقوا جثّة وايكليف بعد موته لأنهم عدّوه مهرطقاً (منشقاً عن العقيدة). وردّاً على الإصلاح الديني البروتستانتي جاء الإصلاح الديني الكاثوليكي الذي أدى إلى سلسلة من الحروب الأهلية في فرنسا وانجلترا، إضافة إلى الحرب الدموية التي استمرت ثلاثين عاماً التي شملت كلاً من ألمانيا، والسويد، وفرنسا، والدانمارك، وهولندة، والإمبراطورية الرومانية المقدسة ممثلة في هابسبُرغ. ففي ٢٤ آب عام ١٥٧٢ م، مثلاً، وفيما يُعرف بـ (مذبحة يوم القدّيس سانت بارثولوميو) قُتل في ذلك اليوم عشرة آلاف (١٠،٠٠٠) من البروتستانت في فرنسا. وكتب البابا غريغوري الثالث عشر رسالة تهنئة إلى ملك فرنسا شارلس التاسع قائلاً: (نُشاركُكم البهجة العظيمة؛ لأنه بمعونة الربّ فقد خلّصتُم العالمَ من هؤلاء المُهرطقين الحُقراء)!!![٥]

أمّا فيما يخص الإسهام العثماني (التركي) الإسلاميّ في الإصلاحات البروتستانتية[٦][٧][٨]، فيُناقش كينيث سكّن في كتابه: (اللوثرية والخطر التركي، المطبوع عام ١٩٦٣)، أن الألمان لم يعطوا الكثير من الاهتمام للأتراك العثمانيين آنئذ حتى هزموا المجريين (الهنغاريين) في معركة موهاكس عام ١٥٢٦م. ومن ثمّ فإن المواقف المُعلنة قد تحوّلت تسبياً من مواقف العصور الوسطى.

وبينما كان لوثر، مثل الكثير من كُتّاب القرون الوسطى، يرى في الأتراك وفي الإسلام عموماً عقاباً من الله، فإن سكّن يرى أن الرأي العام قد تغيّر، حيث إنّه بدل المناداة بحملة صليبية جديدة، شعر أغلب الألمان أن الحرب ضد الأتراك يجب أن تقوم بها الدولة لا الشعب إضافة إلى ذلك، فعلى المستوى الثقافي/ الديني، فإن سكّن يؤكد أن هناك ازدراءً أكثر للصارى الأتراك (الأورثوذوكس) – الذين كان واجبهم أن يتعلموا ويكونوا بروتستانت – بدل ازدراء المسلمين الأتراك، الذين لم يعرفوا أصلاً ما هو الأحسن لحسب اعتقاد المؤلف المُضادّ للإسلام عموماً. وهو (أي سكّن) يرى أنه في حين كانت هيمنة الأتراك أمام الكاثوليك في مالطة وفي ليبانتو مُرحّباً بها في إنجلترا البروتستانتية، فإنها كانت موضع احتفالات عظيمة في إسبانية، وإيطالية، والنمسة الكاثوليكية؛ وفي الوقت نفسه، فقد أعقب ذلك ارتفاع المشاعر الإسلامية ضد الكاثوليكية في استانبول (التي كانت لصالح البروتستانت، وبمرور الزمان، أثبتت أنها ليست بالفائدة التجارية القليلة لإنجلترا وهولندة (البروتستانتية)، حيث قامت الطبقة الحاكمة العليا بتهوين وتقليل عدائها للإسلام).

لقد اتفقت تقريباً عدة أجيال من الباحثين على أن العثمانيين هم الذين «أنقذوا» البروتستانتية (هو قولٌ آخر لتقرير أنه ماكان بإمكان الغرب من الارتقاء صعوداً دون الإسلام). وبعض المؤرخين أطلقوا على الأتراك «حلفاء الإصلاح البروتستانتي»؛ لأن حملات العثمانيين في وسط أوروبا هي التي ساعدت لتحويل الطاقات العسكرية والموارد الاقتصادية لقرات البابوية – هابسبُرغ التي كانت تُريد استئصال اللوثريين والهراطقة الآخرين. إن السُلطات التركية كانت أكثر تسامحاً مع البروتستانتية من الكثير من الأمُراء الكاثوليك الرومان، وإنّ الحكم العثمانيّ في البلقان كان بعمومه أقل استغلالاً من نبلاء الكاثوليك الرومان الذين كانوا في السلطة هناك قبل الفتوح العثمانية. لذلك فإن القرويين البلقان في القرن السادس عشر اعتادوا القول: «عمامة الأتراك أحسن من تاج البابا المُثلّث». فلقد كان التهديد العثماني هو الذي أجبرَ شارلس الخامس وحلفاءه الألمان على الإذعان لمنح حرية الممارسة الدينية للطوائف اللوثريّة في المرحلة العصيبة من الصوام بين ١٥٢٠ و١٥٣٠ م. لوثر، مثل الكثير من المبشرين البروتستانت والكاثوليك، اعتقد أن «الأتراك هم شعب يمثل القوة الإلهية» جاؤوا لمُعاقبة النصارى على ذنوبهم. ثم إنه في ردّه على البابا، دافعَ لوثر عن المبادئ أن «قتال الأتراك هو مقاومة عقاب الربّ على ذنوب المُذنبين». على الرغم من أن لوثر كان في اعتراضه «للقتال ضد الأتراك على أنه أقل أهمية من اعتراضه الأهم، وهو القتال تحت قيادة البابوية».

وفي إنجلترا البروتستانتية، سلكت الملكة اليزابيث سياسة التحالف التجاري والعسكري مع الخلافة العثمانية، في زمن حقبة العداء المفتوح (العلني) مع إسبانية. ففي عام ١٥٨٥، قام عضو مجلسها القوي ذو النفوذ

(والشينغهام) بإعطاء تعليماته إلى وليام هاربورن، السفير الإنجليزي لدى السُلطان، لتعزيز التحالف العسكريّ بين إنجلترا والأتراك. والشينغهام كان يأمل في هجوم تركيّ على إسبانية الذي سوف «يحول دون المحاولات والمُخططات الخطرة للملك الإسبانيّ وبمنعها في هذه الأجزاء من العالم النصراني [إنجلترا]». ولكنه فعل أكثر من ذلك. فقد عبّر عن أمله أن تقوم إسبانية وتركية – ذراعا الشيطان كما يراهما – بإضعاف بعضهما بعضاً مما يؤدي إلى قمعهما جميعاً[1].

جـ. عصر النهضة الأوروبية (انظر الوجود الإسلامي في أوروبا آنفاً)[1][2][3][4][5] • جـ

عصر النهضة الأوروبية هو أحد العصور التاريخية الأوروبية التي تلت القرون الوسطى التي سبقت عصر الإصلاح الديني، ويمتد من القرن الرابع عشر إلى القرن السادس عشر على وجه التقريب. مع هذا فإنّ التجربة الأوليّة قد بدأت من النصف الثاني للقرن الثاني عشر، وذلك عندما أدّى إعادة اكتشاف أرسطو ثانية للتأثير في تطوير الفكر الأوروبي وإعادة تشكيله. إن الذي جلب أرسطو إلى أوروبا هو جهود العلماء المسلمين، مثل ابن سينا (بداية القرن الحادي عشر) وابن رُشد (منتصف القرن الثاني عشر).

(لقد ترك العربيّ بصماته الفكريّة على أوروبا منذ زمنٍ طويل، يجب على العالم النصرانيّ الاعتراف بذلك. لقد كتبها في السماء على نحوٍ لا يُمحى يراها كُلُّ من يقرأ أسماءَ النجوم في الكرة السماوية المتادة)؟ (جون درابر. تاريخ التطوّر الفكري الأوروبي. هاربر & رو. المجلد الثاني: ١٨٧٦ و١٩٠٤، صفحة ٤٢).

(إنّ إحدى سمات الإنسان المتحضّر هي معرفة الماضي، سواء أكان ماضي الفرد نفسه، أم قبيلته، أم أُمّته أم حضارته؛ أم ماضي الآخرين الذي تلاقت به حضارةُ الفرد نفسه مراتٍ متكرّرة مُثمرة؛ أم ماضي أي جماعة أسهمت في تقدّم البشرية. على العرب ينطبقُ المثالان الأخيران انطباقاً شديداً. لكن لم يُعرف العربُ على نحوٍ جيّد في الغرب. لقد كانوا ضحايا الجهل والتضليل الإعلامي. وغالباً ما كان يوصف العربُ أو حضارتُهم، وصفاً مشوهاً وبعيداً عن الحقيقة). (عبقرية الحضارة العربية – مصدر النهضة الأوروبية. المحرر: جون هيز. مطبعة فايدون المحدودة أكسفورد. ١٩٧٦ صفحة ٢).

هذا المضمون الفكري المستورد لا يمتّ بصلة إلى النصرانية، بل يعتمد على نحوٍ محضٍ على التفسير الدنيوي الإسلامي فمثلاً:

ابنُ سينا (٩٨٠–١٠٣٧ ميلادية): الشيخ الرئيس في الطبّ، الطبيب المسلم وأبو الطب الإسلاميّ، ومؤلف كتاب تدريس الطب (القانون) الذي أصبح المرجع في الطبّ في كليات الطبّ الأوروبية لعدة قرون. ن كلمة طب (ميديسين بالإنجليزية) مشتقة من الكلمة اللاتينية (ميديسينا) المشتقة من العربية (مادّةُ سينا): أي موضوع /مادة/ محاضرات ابن سينا.

ابنُ رُشد (١١٢٦–١١٩٨ ميلادية): فيلسوف وطبيب الأندلس المسلم (في إسبانية) الذي هيمن على الفلسفة الأوروبيّة والحركة الفكريّة.

إنّ كلمة (كوليج) الإنجليزية مشتقة من اللاتينية (كوليجيم) من كلمة (كول): أي معاً و(ليجير): أي يجمع أو يقرأ. بالعربية (كُليّة) أو منهج دراسي جماعي (كورس) مع الدراسات ذات الصلة، والجمع (كُليّات)، والكلمة مُشتقّة من كتاب ابن رشد الأصلي: (الكليّات في الطب).

ومع أن أوروبا تعرّضت إلى الثقافة الإسلامية عبر عدة قرون في أثناء الاتصال مع شبه الجزيرة الآيبيرية وصقلية، ولكن الكثير من الفكر الإسلامي كالعلوم والطب والعمارة قد انتقل إلى الغرب في أثناء الحروب

الصليبية. كذلك كان للخبرات العسكرية الإسلامية تأثيرٌ في أوروبا، فمثلا أصبحت القلاع الأوروبية بناء ضخما عظيما كما كانت في الشرق، بدلاً من بنايات خشبية صغيرة كما كان معروفا في السابق. ودفعت الحاجة لتجهيز وسائل النقل وتزويد الجيوش الكبيرة بالمؤن إلى ازدهار التجارة في أنحاء أوروبا كافة. فالطرق التي كانت أكثرها مهجورة منذ عهد الرومان بدأت تشهد نشاطا متزايدا في حركة المرور، حيث بدأ التُجّار المحليّون بتوسيع آفاقهم التجارية. ولم يكن هذا لأن الحروب الصليبية هيّأت أوروبا للسفر، ولكن على الأرجح لأن الكثير من الناس كان يريد السفر ثانية بعد أن تعرّفوا منتجات الشرق الأوسط. وهذا أيضاً ساعد على ابتداء النهضة في إيطالية لأنه منذ البداية كانت لدول المدن الإيطالية مستعمراتٌ تجارية مهمة ومُربحة من الممالك الصليبية في كل من الأرض المقدّسة، ومن ثمّ في الأراضي المُستولى عليها من البيزنطيين.

على الرغم من هزيمتهم النهائية في الشرق الأوسط فقد استطاع الصليبيون في أوروبا الغربيّة استعادة شبه الجزيرة الأيبيرية (الإسبانية) على نحو دائم، ولإبطاء مسيرة التوسع الإسلامي ولكن من ناحية أخرى، فمثل هذه الحملات الصليبية الدمويّة الأخيرة على الأندلس قد ارتدّت على أوروبا بهجوم إسلاميّ مُضادّ من جهة أوروبا الشرقية، ولا سيّما على القسطنطينية التي تمّ إسقاطها في نهاية العصور الوسطى عام ١٤٥٣ م، التي كانت فقط البداية لمزيدٍ من الفتوح الإسلامية. فقد اكتسح الإسلام منطقة البلقان طولا وعرضا؛ واستولى على جزر شرق البحر الأبيض المتوسط كافة، (كريت ورودس والبقية)؛ واحتلّ اليونان كلّه، ثم استمر مُندفعا نحو وادي الدّانوب، وشمالاً نحو السهول الكبرى؛ وقضى على مملكة المجر (هنغاريا) القديمة في معركة موهاكس المُميتة.

وأخيراً وفي الثلث الأول من القرن السادس عشر، تماما في اللحظة التي عصفت فيها رياح الإصلاح الديني الصراني، كان الإسلام يُهدّد أوروبا عن كثب؛ واضعاً (فيئا) قلب الإمبراطورية تحت الضغوط (الإسلامية) مرتين: عام ١٥٢٩ وعام ١٦٨٣. والحقيقية التي لم تُدرك عموماً هي أن السبب في نجاح ثورة لوثر الدينية ضد الكاثوليكية في ألمانية كان بسبب الضغط الإسلامي القادم من الشرق الذي شلّ السلطة المركزية لأباطرة ألمانية.

لذلك كان مثل هذا الاتّصال المباشر بالعرب في داخل أوطانهم يُشكّل قناة مهمة للتأثير اللغوي؛ فكثيرٌ من الصليبيين عندما رجعوا إلى أوطانهم في أوروبا جلبوا معهم قصصاً كثيرة عن تجارب حياتهم (المعيشية والاجتماعية) في العالم العربي، إضافةً إلى أشياء كثيرة كالزرابيّ، والشطرنج، ومختلف أنواع الطعام.

ومثل هؤلاء الصليبيين، قد أدخلوا أنفسهم العديد من الكلمات إلى الفرنسية والإنجليزية. وقامت اللغة الفرنسية بالخصوص وسيطاً للاستعارة اللغوية المباشرة، ولنقل الكلمات العربية إلى الفرنسية؛ وفي الوقت نفسه فإن التأثير اللغوي لشديد للغة الفرنسية (النورماندية) في اللغة الإنجليزية شكل وسيطا غير مباشر لنقل العربيّة إلى اللغة الإنجليزية (راجع الفصل الثاني: اللغة الإنجليزية بوتقة انصهار اللغات الأوروبية).

على الرغم من الحماسة والتعصّب الدينيّ الذي بلغ ذروته بالكارثة الإنسانية والعلميّة التي تمثلت بحرق المسلمين واليهود مع الآلاف من كُتبهم النفيسة (كُتب الإسكوريال) علانيةً من قبل محاكم التفتيش الإسبانية التي أنشئت في أعقاب ما يسمى بالاسترداد الإسباني عام ١٤٩٢م، ومن بعد ذلك حركة الإنسانيات المضادة لحركة السكولاستية، كلها لم تستطع محو ذكريات العرب في إسبانية عبر (٨) قرون، أو إلغاء تأثيرها في أوروبا.

إن العلماء والأطباء العرب والمسلمين، هم الذين قدّموا حقائقهم العلمية ونظرياتهم الرصينة (ليس على أساس التجربة والخطأ فقط) بل على أساس التجارب العلمية على الحيوانات، وطُرق التداخل البشري (من أمثلة ذلك التشريح الطبي، والعلاج بالأدوية والعقاقير الطبية، والدراسات المقارنة)، ومُراقبة التجارب العلمية وتسجيل نتائج البحوث؛ وترك الطب العربي والعلوم العربية تأثيراً طويلاً، عميقاً، لا يُمحى في الطب والعلوم الأوروبية. فقد ترجمت

جُلّ كتب الطب والجراحة العربية آنذاك إلى اللاتينية عن طريق قسطنطين الإفريقي (١٠٢٠–٠٨٧ م)، وجيرارد الكريموني (١١١٤–١١٨٧م) – وفرج بن سالم. والأخير كان يهودياً من صقليه: وهو الذي قام بناءً على أمر الملك شارلس من أنجو (في صقلية) (١٢٢٦–١٢٨٥م)، قام بالمهمة الشاقة في ترجمة كتاب: (الحاوي في الطب) للرازي إلى اللاتينية، وهو موسوعة طبية تحوي ٢٢ مُجلداً من العربية للاتينية، وقد استمرت طوال عمر الترجم، التي انهاها نحو ١٢٧٩ م، في صقلية: وكتاب الحاوي (الموسوعة الطبية) مثلاً صار المرجع الطبي لجميع الأطباء الأوروبيين ولعدة قرون. وفي طليطلة، قام جيرارد الكريموني بترجمة الكتب الآتية إلى اللاتينية: قانون ابن سينا، جراحة أبي القاسم (الزهراوي)، كتاب المنصوري للرازي، إضافة إلى الكتب العربية للكندي (المتوفى عام ٨٧٣م)، وكتب ثابت بن قُرّة (المتوفى عام ٩٠١م). وقام قسطنطين الإفريقي في جنوب إيطالية بالترجمة إلى اللاتينية جزءاً من الكتاب الملكي (موسوعة طبية) لعلي عباس (المجوسي)، ثمّ توفي المترجم عام ١٠٨٧، ومن ثم أكمل ترجمة باقي الكتاب الملكي المترجم جون الشرقي (لعله جون العربي النصراني)، وأعقبه كذلك ستيفن الإنطاكي في ١١٢٧، مستكملين ترجمة الكتاب الملكي. وقام أديلارد من باث بترجمة كل الكتب العربية الآتية إلى اللاتينية: كُتب الخوارزمي (من القرن التاسع الميلادي): كتاب الخوارزمي في الرياضيات، والجداول الفلكية (المُثلثات) عام ١١٢٦م، إضافة إلى ذلك، فقد وجدت الأقاصيص العربية الفلسفية طريقها إلى أوروبا بأشكال محوّرة، فعلى سبيل المثال:

طرزان: بطل قصص «إدجار رايس بوروز» الذي تربّى مع القرود. وقصص طرزان هي تحوير لقصة يقظان، تأتي التقارب اللفظي ولا سيّما بالإنجليزية بين طرزان ويقزان (ويقزان أو يقظان هو حيّ بن يقظان التي ألفها الطبيب والفيلسوف الأندلسي ابن طفيل نحو ١١٨٥ حول طفل تُرك في مهده جرفه الماء لجزيرة حيث تبنّته ظبية أم (كانت قد فقدت وليدها حديثاً). ونما الطفل مع الحيوانات بالغابة حتى ماتت أمه، فبدأ يبحث عن روح أمه. ومن ثمّ عن سر الحياة والموت، حتى وصل في رحلته الروحية الفلسفية إلى وجوب وجود خالق أعظم للمخلوقات والحياة (الله). إن الوصف التشريحي للظبي يدل على علم ابن طفيل الواسع في التشريح الحيواني. وكتاب ابن يقظان هذا عُدّ تحفة ورائعة أدبية عالمية مزجت الطب بالفلسفة. وقد ترجم ميراندولا (١٤٩٤)، وبوكوك (١٦١٧)، الكتاب إلى اللاتينية تحت اسم «الفيلسوف الذي علّم نفسه» كما ظهر الكتاب في لغات عدة. ثم إن قصة روبنسون كروزو لمؤلفها دانييل دوفو، وقصة طرزان لمؤلفه إدجار رايس بوروز، وقصة كتاب الأدغال لمؤلفه روديارد كيبلنك، هي كلها تحويرات للقصة الأصل: قصة حيّ بن يقظان (أو الفيلسوف الذي علم نفسه) لابن طفيل الأندلسي التي ألفها نحو ١١٨٥.

والأكثر إثارة للانتباه والذكر هو أن الأطباء العرب والمسلمين هم الذين صححوا عدة نظريات خاطئة للأطباء الإغريق (اليونان). فمثلاً مرجعية جالينوس أجبرت أجيالاً من الأطباء في أوروبا لتطبيق علومه في تشريح الحيوان تطبيقاً أعمى على الأجساد الإنسانية. وعندما وقعت متابر العلم في أيدي الكنيسة، صارت كتاباته (كتابات جالينوس)، كالأناجيل تحمل ختم سلطة الكنيسة وعصمتها من الخطأ، (حتى صحح العرب مفاهيم وآراء جالينوس الخاطئة في علم التشريح). وبينما كان العلماء والأطباء في العالم الإسلامي في موضع احترام وتقدير الخليفة شخصياً، كان الوضع مختلفاً تماماً في أوروبا، فقد كان الأطباء والعلماء يكابدون صعوبات شديدة في مواجهة تعاليم الكنيسة، وذلك بالرغم من عصر النهضة الأوروبية.

وفي القرن الرابع عشر فإن أستاذ التشريح موندينو اللُزي من بولونا في إيطالية (١٢٧٥–١٣٢٦م، والمعروف أيضاً بمجدد أو معيد علم التشريح)، كان يعرّض نفسه للحرمان الكنسي والعزل من عضويتها بسبب اقتراحه إمكانية الحصول على معرفة أفضل عبر تشريح جثة الإنسان بدلاً من قراءة كتب جالينوس! موندينو كان أول من

شرح الجُثث الآدمية في القرون الوسطى وفي عام ١٣٢٦، طبع (أناتوميا – أي التشريح) ملزمة في علم التشريح التي ملأت الكنيسة اليدوي للتشريح قرابة قرنين وقد استخدم عدة مصطلحات عربية، وبالرغم من التقنية المتأخرة لمصطلحات الطبية، بقي الكثير منها حياً (أي المصطلحات العربية).

وكان أندرياس فيزاليوس من بروكسل (١٥١٤–١٥٦٤م)، يُسمى أبا علم التشريح البشري الحديث؛ يرفض تسليم كالعبد لتعاليم ومرجعية الطبيب اليوناني – الروماني جالينوس في التشريح، ولكنه كان يفضل البحث من الأدلة والبراهين الموثقة، ورؤية الفروق والاختلافات، وذلك عن طريق المشاهدة وتشريح جُثث الإنسان. وكان خصومه يطلقون عليه لقب: (خاطف الأجساد)! بدأ الفلمنكي فيزاليوس دراسة اللغة العربية واليونانية واللاتينية على يد العارفين من الأطباء الإسبان اليهود. في البداية ألف كتاب (شرح الفن الرابع لابن سينا)، ثم بعد ذلك في عام ١٥٣٧ م في مدينة لوفين قام بنشر أطروحته لنيل شهادة البكالوريا (تفسير الكتاب التاسع للرازي).

وفي مدينة بازل عام ١٥٤٣، نشر تحفته الرائعة: (الكتب السبعة في بنية جسم الإنسان) ودليله المرافق كتاب (الخُلاصة)، الذي أصبح معلماً في تاريخ علم الجراحة الحديثة وفن التصوير الطبي. وكان ذلك الحصيلة المثمرة لدراسته الدؤوبة لعلوم وفنون الطب العربي.

أما الإسباني ميخائيل سرفيتوس، زميل فيزاليوس الدراسي، فقد هاجم جالينوس وأكد فكرة ابن النفيس في الدورة الدموية الرئوية (منذ ٣٠٠ سنة سبقت). وعن قصد أو دون قصد، فقد صرّح أن الروح الأساسية تتولد من الامتزاج داخل الرئة، بين الهواء المتنفس ودم البطين الأيمن للقلب، الذي بعد تنقيته يُدفعُ للجانب الأيسر من القلب. قامت الكنيسة بإعدامه حرقاً على الوتد في ٢٦ تشرين أول عام ١٥٥٣م، عقوبة على ذنوبه هذه!!

وبينما كانت حقيقة دوران الأرض حول نفسها ودورانها في فلك (مسار) حول الشمس، معروفة لدى العالم الإسلامي، وعند علماء الفلك المسلمين (خاصة عند البيروني وغيره، كما أشار إليها القرآن الكريم)، وأن العلماء المسلمين قد اخترعوا البوصلة، والاسطرلاب، وأنواع الساعات (ابتداء من الساعة الشمسية، والساعة الميكانيكية، والساعة المائية) لحاجتهم إليها في أمور الدين، لمعرفة أوقات الصلاة اليومية، وتحديد اتجاه القبلة لبناء المساجد وتوجيهها (نحو الكعبة المشرّفة في بيت الله الحرام العتيق في مكة المكرمة)، ولكنّ هذا كان في العالم الإسلامي! أما في أوروبا فكان الوضع مختلفاً تماماً.

فعندما حاول غاليليو أن يعيد عرض نظرية مركزية الشمس وترويجها في أوروبا القرن السابع عشر، فإنه تحدّى نظرية الكنيسة بدوران الشمس حول الأرض، وأدى ذلك به إلى أن يُحاكم من قبل محاكم التفتيش في روما، وأن يتعرض لمعاناة طويلة من التعذيب حتى مات في إقامته الجبرية ببيته؛ فقط في عام ١٩٦٥م، قررت الكنيسة الكاثوليكية الرومانية إبطال حكمها على غاليليو والعفو عنه!!!

كذلك عارضت الكنيسة الكاثوليكية أكثر أعمال نيوتن (قوانين الحركة والجاذبية)؛ المبنية على براهين التجربة والاختبار بوصفها دليلاً للاعتقاد الخالي من التأثير فوق الطبيعي (الخارق للعادة) على العالم الطبيعي المادي (لأنه كان يرى أن الكون يعمل على نحوٍ دقيق متكامل على أساس آليةٍ ميكانيكية محددة سلفاً)! وبالمناسبة فإن نيوتن كان يعتقد «أن ثالوث النصارى» هو زيف وأن الأريانية هي الوجه الصحيح للنصرانية البدائية (الأريانية، اعتقاد آريوس أن المسيح لا يساوي الربّ بالجوهر).

كان تأثير الكنيسة على التعليم مُدمّراً: ففي عام ٣٩١ م، أحرق النصارى إحدى أعظم المكتبات في العالم: في الإسكندرية، التي قيل إنها كانت تضم سبع مئة ألف مخطوطة، كل كتب ملوك الغنوسطية (أصحاب مذهب

العرفان عند بعض النصارى الذين اعتقدوا أن المادة شر، وأن الخلاص يأتي عن طريق المعرفة الروحية؛ (٣٦) جزءاً من الرُّخام السُمّاقي (صخور سُماقية اللون)، مخطوطات (لفّات) أوراق البردي لـ (٢٧) مدرسة من مدارس اللاهوت والأسرار، و(٢٧٠,٠٠٠) من الوثائق القديمة التي جمعها بطليموس فيلاديلفوس، كلّها أُحرقت وأُعدمت معاهد العلوم والمعارف القديمة، وانتهت كلّ دراسة أو تعليم خارج الكنيسة لأي كان[١٥].

من الجدير بالتأمل هنا المقارنة بين إسلام الشرق المُتحضّر، وغرب العصور الوسطى النصراني: وهو أنه عند تفاعل الإسلام مع العرب البدو، استطاع الإسلام تحويلهم إلى أرقى الناس حضارةً على وجه الأرض، ولكن عندما تفاعلت الكنيسة مع الأوروبيين، فإنها دفعت أوروبا إلى العصور الوسطى المُظلمة الدّامية التي استمر بها الحال حتى عصر النهضة الأوروبية الذي صار ممكناً فقط بعد الاتصال بالشرق الإسلامي، وبعد القيام بجهود كبيرة وعلى نطاق واسع لترجمة الكتب والمراجع الدراسيّة العربية، ومن ثمّ دراستها بالتفصيل (باللغة اللاتينية).

٤. التجارة وعلم التقنية [١] [١٥]

إن الوجود الإسلامي العربي في إسبانية وصقلية من القرن الثامن الميلادي وما بعده، والوجود الأوروبي في الشرق في أثناء مرحلة الحروب الصليبية قد أدّيا إلى اشتراك خاص في الثقافة – وبالتحديد – لتبني الأوروبيين الغربيين مظاهر عديدة من الثقافة الإسلامية، وذلك يشمل التذوّق اللغوي وتبنّي الكثير من الكلمات العربية (أيضاً انظر: العنصر العربي للغة الإنجليزية (الفصل الثاني)). والعرب أسهموا بتقنيّات علوم الإبحار، وبوصلة البحّارين، وخرائط السفن والبحرية المستعملة من قبل الملاّحين مع الكثير من الكلمات العربية ذات الصلة، مثلاً: أمير البحر، حبل، الشّلّوب أو السّلوب (قارب صغير)، البَرْك (مركب بثلاث صوار)، موسميّة (ريح موسمية). والعرب قد صنعوا البارود أيضاً. ففي الصين، وجد العرب الخزف الصيني والحرير ولكنهم أيضاً وجدوا البارود، الملح الصخري (المُسمى بالثلج الصيني)، والورق. واعتمدت أوروبا على البَرْدي، لكنّ توفّره انخفض بفتح العرب مصر. ولم يكن مادةً حُرّة التصنيع؛ فإنتاجه خاضع لاحتكار الدولة في العصور الفرعونية، والرومانية الأولى، والرومانية النصرانية.

وقد اختُرع (الورق) في ١٠٥م في الصين. ومن ثمّ جلب أسرى الحرب الصينيون معهم صناعة الورق إلى سمرقند عام ٧٥١ م. وهناك (في سمرقند) بدأت صناعة وتصدير هذا المنتوج. ومن ثمّ أسس وزير الخليفة هارون الرشيد، يحيى البرمكي أوّل مصنع ورق في بغداد عام ٨٠٠م، ومن ثمّ انتشر استعمال الورق في سورية، وشمال إفريقيا، وإسبانية؛ حتى إنه العام ١١٩٠، تمكن السلطان روجر الثاني في صقلية أن يصدر وثيقة من ورق. وبالمقارنة، لم تؤسس أول مصانع ورق في أوروبا حتى القرن الثاني عشر، ثم إن إنتاج الحرير انتقل غرباً مع العرب الذين أدخلوا زراعة أشجار التوت (الذي تقتات عليه دودة القزّ أي الحرير) في الجابية (جنوب تونس). كذلك، فإن زراعة القطن ما عادت باقية كتخصص هندي، ولكنها جُلبت إلى شمال إفريقيا وإلى إسبانية. كما نقلت زراعة النباتات الهندية والآسيوية الشرقية الأخرى إلى المناطق الأخرى للإمبراطورية العربية (أو الأصح العالم الإسلامي): فقصب السكر غُرست في مصر وقبرص وإسبانية، وصبغة النيل زرعت وانتقلت إلى شمال إفريقيا.

كما أسهم العرب بتقنيّات الزراعة والإنتاج الزراعي والمعادن عبر حضارتهم في إسبانية (الأندلس). وتطوير أنظمة الري أدّى إلى نمو منتوجات جديدة في أوروبا مثل: قصب السكر، والأرز، والبرتقال، والليمون، والباذنجان، والأرضي شوكي، والبرقوق، والقطن. وكل هذه المنتوجات جاءت أسماؤها وكلماتها الإنجليزية أصلاً من العربية. ثم إن العرب زرعوا عدة نباتات أخرى مثل الحبوب، الأعناب، الزيتون، التين، الكرز، التفاح، الكمثرى، الرمان، واللوز مع الكثير من النباتات المُنكّهة أمثال: الزعفران، كارثموس أو الزعفران المُزيّف، كمّون، كزبرة، حنّاء، نبات الوسمة (ذو الصبغة الزرقاء)، والفُوّة (نبات ذو صبغة حمراء). وفي كل مكان تتوافر فيه أشجار التوت

بكثرة، انتعشت صناعة الحرير. وزُرع الكتان أيضاً وصُدِّر منه منسوجات الكتان. والعرب هم الذين أسّسو مصانع الورق لغرض نشر التعليم. كما أن الثروة المعدنية في إسبانية تمّ استغلالها وتوظيفها أكثر من ذي قبل. فالحديد الإسباني والنحاس والذهب والفضة والقصدير والرصاص قد أُنتجت جميعها؛ واستخلص الزئبق من الزنجفر (وهو كبريتيد الزئبقيك). وتمّ البحث والتنقيب عن الأحجار الكريمة وجُمِّعت.

كذلك فإن العرب أسهموا بفنون «الحياة المُترفة والمذاوقة» كما هو مُشاهد في تصميم العمارة الرائع لقصر إشبيلية، وفي طراز الحمراء ونافورتها الجميلة في جنات العريف في غرناطة. كما أنتجوا بضائع الترف لكلٍّ من السوق المحليّ وللتصدير أمثال: الملابس الصوفية، والكتّانية، والحريرية؛ الفرو من أغلب الأنواع؛ تصنيع الخزف؛ وتلوين الأحْر. وفي قرطبة استنبطوا أسرار صناعة البلّور (الكريستال) وبرعوا في الحرف اليدوية لصناعة الأدوات المعدنية مُنتجين الأوعية المُتقنة والأشكال عديمة الحياة (غير الحيوانية) من النحاس والبرونز والمُرصّعة أو المُطعّمة بالفضة والذهب؛ وفي القرن العاشر الميلادي كانت الجواهر المُنتجة في قرطبة تضاهي بنوعيتها تلك المصنوعة في بيزنطة (القسطنطينية أو إسطنبول حالياً). كذلك، فإن العرب في إسبانية صنّعوا الثلج الصناعي.

كتب الأستاذ زجاني الملاّخ والدكتورة دوروثيا الملاّخ في (عبقرية حضارة العرب – مصدر النهضة) «ولكن ما برع فيه العالم الإسلامي كان الأقمشة، وعبر التجار العرب عرفت أوروبا أنواعاً واسعة من المنسوجات. وضمن الكلمات المُشتقة عن العربية في اللغات الأوروبية ولا سيّما في الإنجليزية، عددٌ لا يُستهان به مرتبطٌ بالأليسة – مثلاً غزّيّ لشاش مُصنّع في غزة بفلسطين)، البقرم (قماش قاس لتجليد الكتب)، شيفون (شفيف شفّاف)، ساتان (أطلس وهو نسيج حريري)، عتّابي (لباسٌ من عتابية، محلّة في بغداد)، موهير (مُخيّر)، موصلين (نسيج قطني رقيق يُصنع في الموصل)، دمقس (من دمشق)، والقطن. كما أدخل العرب أيضاً صبغة النيل وهي مادة التركيب المهمة في تلوين الأقمشة. وعلى الرغم من أن التصنيع تطوّر في العالم الإسلامي قبل أوروبا بوقت طويل، لكنّ خصوصيات التطوير في البلاد المُهيمن عليها من قبل العرب صارت لا تُنافس التصنيع الأوروبي. ففي العالم العربي، كان التصنيع مثلاً يخضع تماماً لسيطرة الحاكم؛ وكان يتميّز بقلة رأس المال وإحفاق الحرفيين في تنظيم نقابات الصُنّاع (في القرون الوسطى).

وفي إسبانية الإسلامية أدخل العرب مفاهيم إدارة الشؤون البلدية والمقاييس (المعايير) لتنظيم التجارة. والكلمات التي تعكس التأثير العربي في هذه الفعاليات الاقتصادية مثل: ترافيك (من العربية تفريق بمعنى توزيع)، وتعريف (تعريفة)، وشيك (صكّ)، ومخزن (كما في الفرنسية بمعنى مستودع)، ومانكوس (مصطلح العملة في القرون الوسطى أصله من كلمة منقوش)، والمناخ، ومعدل التغيير (بالإنجليزية آفريج)، وقالب، وقفير أو صندوق النفائس المقفول)، وصفر، وقبالة (أي ضريبة من اللاتينية كبالة من الأصل العربي قبالة)، ونظير، وسمت الرأس، ورزق أو خطر.

وعلى الرغم من أن بعض هذه الكلمات يمكن تقصّي آثارها لمصدر لاتيني أو إغريقي أو فارسي، لكنها دخلت اللسان الأوروبي عن طريق العربية. فالكلمة «إسترليني» مثلاً لها قاعدة إغريقية قديمة، لكنها انتقلت إلى الإنجليزية عبر اللغة العربية. وفي تقدّم مفهوم وثيقة التصريف – صك أو شيك – قام العرب بجعل تمويل التجارة أكثر مرونة من ذي قبل. والإسهام المهم الثاني هو تطوير شركات رأس المال المتحدة، الذي تُوصّل إليه عبر التشارك بين التجار المسلمين والتجار النصارى الطليان. والإسهام العربي المهم الآخر للتطوير التجاري الأوروبي لعله قُدّم منذ نهاية القرن التاسع في دمشق عن طريق أبي الفضل جعفر بن علي الدمشقي في كتابه: (الإشارة إلى محاسن التجارة ومعرفة جيد العرض ورديئها وغشوش المتلسين فيها): «هناك ثلاثة أنواع من التجار: الذي يرحل، والذي يخزن، والذي يصدر. وتجارتهم تُنجز بثلاث طرق: بيع النقد في زمن محدد للاستلام، وشراء بقرض ودفعه على دفعات، والمُقارضة».

والمُقارضة في القانون الإسلامي هي عقدٌ يستأمن فيه الشخص رأس ماله مع تاجر للاستثمار في التجارة لكي

يكون له نصيبٌ في الربح. ويتحمل المنفق المستثمر الأخطار المالية كلها، في حين أن الطرف المدير يُخاطر عمله. وكان مفهوم المُضاربة بالتأكيد سابقة لما يُسمى بالـ كومنْدا (الاستيداع)، وهي آلة تجارية قانونية مسؤولة إلى حد كبير عن توسيع تجارة أصحاب المهن في العصور الوسطى. وتُستخدم بوصفها آلية مهمّة بوساطتها يُجمّع رأس المال، ويدخل المنفق (من إنفاق أو استثمار) مع المدير في مشروع تجاري. وأما فيما يخص حركة البضائع إلى الأسواق، فإن تجّار الإمبراطورية العربيّة (العالم الإسلامي) بحكم طبيعتها، أدّت إلى تقدم في حقول الجغرافية والملاحة. فالتفوّق التجاري للعرب في المحيط الهندي والبحر الأحمر ظلّ دون منازع للعديد من السنين قبل ارتفاع نجم الإمبراطورية الإسلامية، واستمر هذا التفوق في العصور الوسطى والنهضة، في كلٍّ من البحر وعلى الأرض. وعند تنقل مغامرات التجار هذه، فإن خبراتهم أثمرت على نحو كتابات جغرافية وتوصيفات البلاد البعيدة وشعوبها، وتسلّلت هذه المعلومات إلى أوروبا من إسبانية وصقلية وبيزنطة (القسطنطينية أو إستانبول حالياً) ولعل من أشهر المؤلفين هو الجغرافي المعروف الإدريسي (١١٠٠–١١٦٦م)، المقيم في بلاط الملك النورماندي النصراني روجر الثاني من صقلية (١١٣٠–١١٥٤م).

ولكن الأكثر شيوعاً هي قصص المغامرات الخالدة لسندباد البحري، ولهذا أيضاً فنحن مدينون إلى تجّار البحار في الإمبراطورية العربيّة (العالم الإسلامي).

وضمن إسهامات العرب للملاحة وبناء السُفن، لعل من الواجب ذكر البوصلة. فالعرب على الأغلب هم أول من استخدمها، بالرغم من أن التحسينات أُضيفت لها مباشرةً من قبل البحّارة الأوروبيين. والابتكار الأكثر خطورة كان الشراع المثلث الذي أدخله العرب أولاً في المحيط الهندي، ثم أدخلوه في المراكب الشراعية الصغيرة والسريعة في البحر المتوسط وباستخدام هذا الشراع استطاعت القوارب العربية شق طريقها ضد الريح، بعكس السفن الضخمة رباعية الشراع في البحر المتوسط التي تستطيع الإبحار فقط أمام الريح (أي باتجاهه). وقاعدة الشراع الثلاثية أخذها وطوّرها بناؤو السفن الأوروبيون، ولا سيّما الإسبان والبرتغاليون بين ١١٤٠–١٤٩٠. وفي هذه المرحلة تبنّوا تصميماً يمزج بين الأشرعة المثلثة ورباعية الصواري والمطبّقة في مراكب أكبر كثيراً من ذي قبل. والكلمة الإنجليزية كرّاك، وتعني سفينة شراعية ضخمة، يمكن اقتفاؤها من الكرّاك الإسباني والبرتغالي إلى القراقر العربية التي تعني السفينة التجارية لمفردها قرقور. الكلمات البحرية الأخرى من الأصول العربية التي دخلت إلى اللغة الإنجليزية: أمير البحر (أدميرال)، بُرْك (مركب ذو ثلاث صوارٍ كُلّ صارٍ بشراع مثلث) حبل، سوب (مركب شراعي وحيد الصاري)، موسميه، قالب، ومعدل (مُعيّر).

إن البحث العلمي في هذا القرن (العشرين الميلادي) حاول جاهداً وضع الحروب الصليبية وفقاً للمنظور الصحيح أن بيّن أن المهن الحرفية، والتجارة، والصلات الفكرية كانت ذات شأن واهتمام، وكانت صحيحة سليمة بين أوروبا والإمبراطورية العربية (العالم الإسلامي) لمدى طويل قبل أن تأتي الحماسة الدينية النصرانية بمسعى استرجاع الأرض المقدسة (فلسطين). إن معرفة الغرب بثروات ومستوى المعيشة والبضائع المنتجة أو المتوافرة داخل الإمبراطورية الإسلامية (العالم الإسلامي) هي التي استثارت الوازع الديني (المزعوم). في نحو عام ١١٨٤، تنبّه أبو الحسن محمد بن جُبير، المستوطن في إسبانية الذي ارتحل إلى أقطار الإسلام كلها على البحر المتوسط، وكذلك إلى المجتمعات النصرانية في صقلية، ساردينيا، والأرض المقدسة (فلسطين) تنبّه وبسُخرية أن المسلمين والنصارى في فلسطين قد استمروا في تجارتهم بالرغم من الحرب بين قوّاتهم: (رجال الحرب مشغولون بحربهم، والناس يتجارون بسلام، والعالم يكون لمن يأخذه) هذا قوله.

ومن القرن الثامن حتى أوائل القرن الثاني عشر، تكوّنت التجارة بين أوروبا والإسلام بصورة رئيسة من تبادل المواد الخام من أوروبا (الخشب، الحديد، الفرو، والعبيد) بالمنتوجات المُصنّعة ومواد الزراعة الكمالية، مثل التوابل

من الإمبراطورية العربية (العالم الإسلامي). ولكن التأثير الإسلامي الدائم في أوروبا لم يتأتَ من المواجهات العسكرية لحملات الصليبية بقدر تأثير السنوات الطويلة للحكم العربي الإسلامي في إسبانية وصقلية. وعبر الابتكارات المُجتذبة لهذه المناطق، دخلت بضائعُ جديدة، وعمليات، وتقنيات، ومفاهيم إلى أوروبا التي كانت متخلّفة آنذاك عن عالم الإسلام كثيراً. ومن ثمّ فإن دَيْن الثقافة الأوروبية والغربيّة للإسلام الذي نُسي أكثره إنما هو دليل على كون التأثير العربي قد استُوعب وتم امتصاصه كاملاً في العالم الغربي. لذا فالإسهام الإسلامي قد صار جزءاً لا يتجزأ من ميراثه (ميراث الغرب)[٧].

• **الإمبراطورية البريطانية والمستعمرات المُسلمة**[٧][٨] (لاسيّما الشرق الأوسط والهند):

كانت الهند هي الجوهرة الكبرى في تاج الإمبراطورية البريطانية. إن القرار الإنجليزي لقتال نابليون عام ١٨٠١، (بعد احتلاله لمصر عام ١٧٩٨)، وتأمين قاعدة عسكرية لأنفسهم في مصر كان يهدف إلى منع الفرنسيين من قطع خطوط إمدادهم وتجارتهم إلى الهند.

كذلك، فالقرار البريطاني بإقامة علاقات مع بلاد فارس (معاقدة ١٨١٤)، والاندفاع داخل أفغانستان معرّضة لخسائر فادحة في ١٨٣٩-١٨٤٢، كان يهدف إلى منع الروس من تحقيق حلمهم بالسيطرة على الهند عبر بلاد فارس مع أفغانستان (الحلم الروسي لم يتحقق أبدًا).

أثناء هذه المغامرات البريطانية، تأثرت اللغة الإنجليزية بشدة بالمقيمين في المستعمرات المسلمة الذين تكلّموا مزيجاً من العربية والتركيّة والفارسية: الذين كانوا يُحْكمون مدة تزيد على ٦ قرون بالمسلمين العرب تحت الخلافة الأموية والعباسيّة. وهذا التأثير اللغوي المتبادل جاء ضرورة بريطانيا للتواصل مع المواطنين الذين يحكمون، ضرورةً للعلاقات المُربحة في التجارة.

والخبرة البريطانية في الهند بدأت منذ نحو ٤٠٠ سنة من الآن: في عهد الملكة اليزابيث الأولى، عندما تقدّم تجار قلائل بطلب امتيازات تجارية من أباطرة المغول الأقوياء.

وفي نهاية القرن الخامس عشر الميلادي ادعى مكتشفان أوروبيان اثنان أنهما وجدا الطرق البحرية الأخرى إلى الهند. كريستوفر كولومبس الذي عبر المحيط الأطلسي (الأطلنطي) عام ١٤٩٢، فهو لم يزل مقتنعاً حتى موته أنه اكتشف الهند (خطأ). وفاسكودي جاما، الذي أبحر من البرتغال عام ١٤٩٧، ودار حقيقةً حول رأس إفريقيا الجنوبي (رأس الرجاء الصالح)، وذهب حتى وصل ميناء التوابل لكاليكوت على ساحل مالابار في الجنوب الغربي للهند. وقد اكتشف أيضاً الطرق البحرية للتجارة العرب إلى الهند. رحلة دي جاما ألهبت الخيال والآمال التجارية لأوروبا.

وفي عام ١٥٨٢، نظّم مجموعة من تُجّار لندن بعثة إلى الهند: رالف فيتش، ووليم ليدز، وجيمس ستوري أبحروا في مركب (تايجر) بعد نزولهم في طرابلس في شمال إفريقيا، اتبّعوا الطرق البرّية إلى الهند. ومن بعد ذلك، تغنّى فيتش مديحاً لما رأى: هنا طرائق عظيمة لكل أنواع التوابل والدواء، للحرير والملابس الحريرية، لأسنان الفيلة، والكثير من أعمال الخزف الصيني، والكثير من السُّكر المُستخلص من نواة كالجوزة تُسمى (كاجاره)، والشجرة تُسمّى النخلة المسعّفة: وهي أكثر أشجار العالم ربحاً».

وتحت ضغط التجّار الإنجليز – وآملاً بمستحقّات الرسوم الجُمركية المستعادة من التجارة المباشرة مع الشرق – منحت الملكة إليزابيث الأولى في ديسمبر ١٦٠٠، امتيازاً لـ «حاكم وشركة تجّار لندن المتاجرين مع الهند الشرقية».

هذه الشركة سرعان ما ارتفع نجمهما لأعلى قوة في القارة الهندية لكن الآمال التجارية للشركة لم تكن تركز على الهند. وإنما كانت تأمل أن تنفذ إلى التجارة الغنية لجزُر التوابل الهند الشرقية. التوابل كانت بوضوح السلعة التي يُقصد إليها. ولما كانت أكثر مواشي أوروبا الحيّة تُذبح قُبيل كل شتاء، كان الاحتياج للتوابل لتحفظ

اللحم في الفصل البارد. ثم إن التوابل تُنكّه الطعام وتغطي على مذاق اللحم الفاسد. ولكنّ جُزُر التوابل (جُزُر صغيرة مثل أمبيونا، تيرنيت وتايدور إضافة إلى جزائر الهند الشرقية الكبيرة جاوة، وسومطرة، وسيليبس) كانت أصلاً تُتاجر بنشاط مع الهولنديين.

وبطردهم من الهند الشرقية، ركّز الإنجليز اهتمامهم على الهند بوصفها ثاني أفضل خيار؛ وهزلت شركة الهند الشرقية على الأرض الهندية عام ١٦٠٨. ووصل وليام هوكنز إلى سُرات، الميناء المزدهر على ساحل الهند الغربي. وكان على الإنجليز أن ينافسوا البرتغاليين أولاً ثم الفرنسيين آخراً. وحلّ هوكنز (كسفير بريطاني) مع بطانة الملك (الذي رشاه) إلى اكرا، عاصمة الإمبراطور المغولي جاهانكير (١٦٠٥–١٦٢٨)، وهو مسلم من أصل مغولي، يتكلم خليطاً من الفارسية والعربية، ويتربع حاكماً على عدد كبير جداً من المقاطعات الخاضعة والمسكونة بملايين الناس بأديان وثقافات متضاربة. ومن هذه البدايات البسيطة ومع سقوط الملك المغولي الأخير شاه علم عام ١٨٠٣، وبنهاية الحرب النابليونية عام ١٨١٥، صار البريطانيون في الهند السادة الذين لا يُنازعون لهذه القارة الهندية الهائلة حتى استقلال الهند عام ١٩٤٨[٧].

وعبر ٣٠٠ سنة من الوجود البريطاني واستعمار القارة الهندية، وأثناء الصلات البريطانية مع بلاد فارس المجاورة والأتراك العثمانيين، دخلت الكثير من الكلمات التي تبدو هندية، فارسية، أو تركية (وهي أصلاً عربية أو مُتبنّاة واستُعملت من قبل العرب) إلى اللغة الإنجليزية عن طريق الحُكّام البريطانيين والتُّجّار أنفسهم. والكلمات الآتية هي فقط نماذج قليلة من الكلمات المُستعارة في اللغة الإنجليزية:

فمن الهندية جاءت الكلمات الآتية[٨]:

«آية من العربية علامة في الجمال والرحمة» (ممرضة أو خادمة)، و«كسمت من العربية قسمة والتركية قسمّت (مصير أو نهاية)، و«كوران» (كتاب المسلمين المقدّس)، و«موغول» (مغول اسم السلالة الحاكمة الهندية العظيمة)، و«محمدي» (أحد أتباع النبي محمد ﷺ، أو مُسلم)، و«مسلم» (أحد أتباع الإسلام)، ثيوب، نوّاب من العربية، نوّاب جمع نائب: أي وكيل» (أمير هندي مسلم)، وبيجاما من العربية منامة، سروال فضفاض يُربط حول الوسط يلبسه المسلمون لتغطية العورة أو الأجزاء الخاصة» (لباس النوم في الاستعمال الأوروبي)، و«صاحب» (صديق محترم أو سير (سيد)، «سلام» (للتحية)، و«سيبوي من الفارسية سيباهي» (جُندي هندي في الخدمة الأوروبية)، و«شاه» (ملك)، و«شكي أو تك من العربية شقي» (لص).

ومن الفارسية جاءت الكلمات الآتية:

«باربيكان، بابُ الخان» (برج مُراقبة على بوابة القلعة)، و«بخشيش» (حُلوان صدقة)، و«بازار» (سوق)، و«شيه ميت أو شاه مات» (الملك مات في لعبة الشطرنج)، و«شيس» (لعبة الشطرنج يلعبها الشاه)، و«خاكي» (ملابس بلون التراب تستخدم لباساً عسكرياً) و«بُرده» (الحجاب الذي تلبسه المسلمات، أو ستار حجب النساء)، و«شاه» (ملك).

ومن التركية جاءت الكلمات الآتية: «انكورا» (ماعز يمتاز بطول شعره الأبيض يوجد في أنقره)، و«بيه أو بيك (حاكم)، و«بيكوم» (أميره مُسلمة، مؤنث بيه)، و«يوش» (هُراء)، و«كباب» (كباب)، و«خان» (أمير)، و«خديوي» (نائب الملك)، و«يوغورت» (لبن).

٦. المسلمون في الأمريكيتين قبل كولومبوس:

موضوع التأثير العربي في اللغة الأمريكية أصبح حقلاً خصباً للبحوث المستفيضة المعاصرة التي تستحق كتابتها في كتاب مستقل وحده.

المراجع

1. **John R Hayes** (Editor). **The Genius of Arab Civilization-Source of Renaissance.** Phaidon Press Ltd. Oxford 1976, pages 2, 12-13, 201-205.

2. **Al – Fallouji M A R. Publications (The Author):**

   a. Al-Fallouji M: **Notes on the early history of Medicine** (Arabic Medicine, Arabic Surgery, The Arabic Legacy, The Greek Medical Legacy). In **'POSTGRADUATE SRUGERY-The Candidate"s Guide'.** By MAR Al-Fallouji. Butterworth Heinemann Medical Books. Oxford. Second Edition (March 1998). Pp 616-620.

   b. Al-Fallouji M: **Review of Literature** - Milestones, Pebbles and Grains of Sand (Chapter Two). In **'COLORECTAL VASCULAR PATTERNS IN HEALTH AND DISEASE-An applied Anatomy, Physiology and Pharmacology at the Microcirculation Level ', PhD Thesis.** By Dr MAR Al – Fallouji. December 1988. Royal Postgraduate Medical School/Hammersmith Hospital (UNIVERSITY OF LONDON). Pages 32-70.

   c. Al-Fallouji: **History of Surgery of the Abdominal Cavity: Arabic Contributions.** (The First Large Bowel Anastomosis in the Literature) **International Surgery** September 1993; 78/3:236-8.

   d. Al-Fallouji: **Arabic Caesarian Section: Islamic History and Current Practice** **Scottish Medical Journal** February 1993; 38:3-4.

   e. Al-Fallouji: **Arabs were skilled in anesthesia.** **British Medical Journal** April 1997; 314:1128.

   f. Al-Fallouji: **History of Arab Surgery. Part I: General Considerations** **Emirates Medical Journal** August 1992; 10:174-7.

   g. Al-Fallouji: **History of Arab Surgery** **Part II: Arab – Islamic influence on Europe** **Emirates Medical Journal** December 1992;10:250-4.

   h. Al-Fallouji: **History of Arab Surgery** **Part III: Basic Applied Sciences in Surgery.** **Emirates Medical Journal** August 1993; 11:132-6.

   i. Al-Fallouji: **History of Arab Surgery** **Parts IV and V: Clinical Methods and Operative Innovations.** **Emirates Medical Journal** August 1998; 16:129-34.

   j. Al-Fallouji: Surgery (general) Item no. 537 **Current Work in the History of Medicine** April-June 1997, 174 An international Bibliographical Journal of references The Wellcome Institute for the History of Medicine.

   k. Al-Fallouji: **History of Laparotomy for Military Trauma according to the Original Arabic Manuscripts**. In «Proceedings of 34th International Congress of the History of Medicine» held at Glasgow, Scotland 4-8 September 1994 (published in September 1995). British Society of the History of Medicine.

   l. Al-Fallouji: **Arabic Influence on English Language in Medicine and Routes of such Linguistic Transfer.** In «Proceedings of 36th International Congress of the History of Medicine» held at Tunis – Carthage 6-11 September 1998.

   m. Al-Fallouji: **Arabic Influence on European Medicine** (Invited Lecture delivered on 7th July 2004) **Thackray Museum Lectures 2004** Yorkshire Medical & Dental History Society Leeds (Great Britain).

obeikandl.com

n. Al-Faiouji: **History of Surgery in the Arab World** (Invited Lecture delivered on 11 Nov 1992) (Won the Prize for the best lecture)
3rd CONGRESS OF ARAB SURGEONS 10-13 Nov 1992 Tripoli, LIBYA

3. Ullmann M. **Islamic Medicine. Islamic Surveys 11.** Edinburgh Paperbacks. Edinburgh at the University Press. First edition 1978.

4. Anna Pavord: **The Naming of Names** (The Search for Order in the World of Plants). Bloomsbury, London. 2005 pages 105 – 107.

5. a) Montgomery Watt W. **The Influence Of Islam On Medieval Europe.** Islamic Surveys 9 Edinburgh Paperbacks. Edinburgh at the University Press. First edition 1972, Reprinted 1987.

b) Henry Coppee. **History of the conquest of Spain by the Arab Moors with a sketch of the civilization which they achieved, and imparted to Europe** (volume II). Gorgias press. 2002

c) Chris Lowney. **A Vanished World (Muslims, Christians, and Jews in Medieval Spain).** Oxford University Press. 2006. Pages 5, 10-13, 255-260.

d) Miles Hodges. **The High Middle Ages (1050 to 1400).**
Retrieved from internet on 8/28/2006. Internet search through google.

e) Wikipedia, the free encyclopedia. **Crusade.**
Retrieved from internet on 8/29/2006. Internet search through google.

f) Robert Jones. **A Brief History of the Inquisition.** Retrieved from internet on 8/28/2006. http://G:\The%Inquisition.htm

g) Helen Ellerbe. **The Dark Side of Christian History**. Morningstar Books, 1995.

h) William Forstchen and Bill Fawcett. **If Seemed like a Good Idea - A Compendium of Great Historical Fiascoes.** published by Harper 2000 under 'There is Nothing Worse Than an Idealistic War' pages 25-32.

6. Brewer E. C. **The Dictionary of Phrase and Fable**. Cassell. Millennium edition revised by A Room, 2002.

7. Judd D. **The British Raj (The Documented History Series).** England: Wayland (publishers) Ltd, 1987.

8. **Hobson-Jobson The Anglo-Indian Dictionary**. By Henry Yule and A. C. Burnell.
First published 1886 reprinted 1996. Wordsworth Reference (Wordsworth Editions).

9. Keith Laidler. **The Head of God-The Lost Treasure of The Templars**. Weidenfeld & Nicolson. London, 1998. Pages 169-221.

10. **John V. Tolan. Saracens (Islam in the Medieval European Imagination).** Columbia University Press. New York, 2002.

11. **Michael Frassetto and David Blanks**. Western Views of Islam in **Medieval and Early Modern Europe**-Perception of Other. St. Martin's Press. New York. 1999.

12. **QUOTATIONS ON ISLAMIC CIVILIZATION.** By Dr. A. Zahoor 1992-1997-1999. Website: Quatations on Islamic Civilization. mht.

obeikandi.com